

سُورَةُ الشَّرْحِ

مِنْ ضِيقِ الصَّدْرِ إِلَى سَعَةِ الرِّسَالَةِ

ضِيقُ الصَّدْرِ

رَدَّادُ السَّلَامِي

سُورَةُ الشُّرُحِ

حِينَ يَتَّسِعُ الصَّدْرُ لِلرِّسَالَةِ

رداد السلامي

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ (1) وَوَضَعْنَا عَنكَ
وِزْرَكَ (2) الَّذِي أَنْقَضَ ظَهْرَكَ (3) وَرَفَعْنَا لَكَ
ذِكْرَكَ (4) فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا (5) إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ
يُسْرًا (6) فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ (7) وَإِلَى رَبِّكَ
فَارْغَبْ (8)

الفكرة المركزية للكتيب

سورة الشرح ليست وعدًا نفسيًا عابرًا بالراحة، وليست خطابًا رقيقًا لتطبيب خاطر فحسب، بل هي سورة تكشف كيف يربّي الله عبده المختار على حمل الثقل العظيم؛ إذ لا تبدأ بتغيير العالم، بل بتوسيع الصدر، ولا تبدأ بإزالة الأعداء، بل بوضع الوزر، ولا تبدأ بمنح الراحة المطلقة، بل بتعليم القلب أن اليسر ليس شيئًا يأتي بعد انتهاء العسر فقط، بل سرُّ مصاحب له، كالنور الذي يولد داخل الشدة لا خارجها.

فالإنسان في سورة الشرح لا ينجو لأنه بلا عسر، بل لأنه يتعلم كيف يرى اليسر وهو في قلب العسر، وكيف يفرغ من عمل ليدخل في عمل، وكيف يجعل نهاية الجهد بداية رغبة إلى الله، لا بداية انقطاع عنه.

المقدمة

السورة التي لا تواسي فقط، بل تعيد بناء الداخل

ليست سورة الشرح من السور التي تمر على القلب مرورًا هادئًا ثم تترك فيه أثرًا رقيقًا فحسب، بل هي سورة تدخل إلى أعماق موضع في الإنسان: موضع الضيق، والثقل، والانقباض، والشعور بأن الطريق أكبر من الطاقة، وأن التكليف أعلى من الوسع الظاهر، وأن النفس تحتاج قبل أن تواجه الخارج إلى أن يُعاد ترتيب داخلها.

إنها سورة قصيرة، ولكن قصرها ليس قلة معنى، بل شدة تركيز. كأن الوحي فيها لا يكثر الكلام لأنه يخاطب موضعًا متعبًا لا يحتمل الإسهاب، ولا يفتح أمامه أبوابًا كثيرة، بل يضع يده على الأصل: الصدر.

فإذا اتسع الصدر، اتسعت الطريق.

وإذا ضاق الصدر، ضاق العالم كله، ولو كانت الأرض واسعة.

هذه السورة لا تبدأ بالعدو، ولا بالمجتمع، ولا بالمستقبل، ولا بالنتائج. تبدأ بسؤال تقريرى مفعم بالمنة: {أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ}

والسؤال هنا ليس طلبًا للجواب، بل إيقاظ للذاكرة. كأن الوحي يقول: انظر إلى ما جرى فيك قبل أن تنظر إلى ما جرى حولك. تأمل النعمة الداخلية قبل

أن تقيس الطريق بأثقاله الخارجية. لقد بدأ العون من هناك، من موضع لا يراه الناس، ولا يصفقون له، ولا يقيسونه بموازينهم: من الصدر.

والصدر في القرآن ليس مجرد عضو، ولا هو مساحة عاطفية مبهمة، بل هو محل التلقي، والاحتمال، والانسراح، والخرج، والوسوسة، والطمأنينة، والضيق. فإذا شرح الله الصدر، لم يبلغ الجبال من الطريق، ولكنه جعل في الإنسان قدرة على الصعود. لم يحذف العسر من الحياة، ولكنه خلق في الداخل يسرًا يرافقه. لم يجعل الرسالة خفيفة، ولكنه جعل حاملها أوسع من ثقلها.

وهنا تكمن عظمة السورة.

إنها لا تعد الإنسان بأن الطريق سيخلو من العسر، بل تعلّمه أن العسر ليس الكلمة الأخيرة. ولا تقول له إن التعب خطأ، بل تقول له: إذا فرغت فانصب. ولا تجعله يتوقف عند الإنجاز، بل ترده إلى الوجهة العليا: {وَالْيَ رَبِّكَ فَارْغَبْ}.

كأن السورة كلها تربي الإنسان على قانون بالغ الصفاء:

ليست النجاة في أن لا تُثقل، بل في أن يُشرح صدرك لما حُمِلت.

وليست الكرامة في أن تُعفى من العسر، بل في أن ترى اليسر معه.

وليست الراحة في الفراغ، بل في أن يتحول العمل إلى طريق إلى الله.

ومن هنا فإن سورة الشرح ليست سورة للمنكسرين وحدهم، بل هي سورة لكل من يحمل معنى أكبر من نفسه. لكل صاحب رسالة، وكل مصلح، وكل مؤمن أثقلته الطريق، وكل قلب ظن أن الضيق نهاية، فإذا بالوحي يعلمه أن

الضيق قد يكون بداية الشرح، وأن الحمل قد يكون مقدمة الرفع، وأن العسر قد يحمل في داخله يسراً لم يكن يراه.

هذه السورة تعلمنا أن الله إذا أراد بعبده حملاً عظيماً، بدأ بقلبه.

لا بالمشهد الخارجي.

ولا بترتيب الظروف.

ولا بإسكات الخصوم أولاً.

بل بالقلب.

لأن القلب إذا ضاق، هزمته التفاصيل الصغيرة.

وإذا اتسع، حمل ما لا تحمله الجبال.

الفصل الأول

بين الضحى والشرح: من كشف العناية إلى توسيع الصدر

تأتي سورة الشرح بعد سورة الضحى في ترتيب المصحف، وهذا الجوار ليس جواراً عابراً في أثره على التلقي، وإن لم نجعل منه حكماً قاطعاً في النزول أو سبباً مستقلاً للفهم. ففي سورة الضحى خطاب يبدد وحشة الانقطاع، ويعيد إلى القلب شهود العناية: {مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى}

وهناك يذكر الوحي بالنعم التي أحاطت بالنبي ﷺ:

كان يتيمًا فأواه الله.

وكان طالباً للهداية فهداه الله.

وكان عائلاً فأغناه الله.

ثم تأتي سورة الشرح كأنها تنتقل من ذاكرة العناية في الخارج إلى أثر العناية في الداخل. من: ألم يجدر؟ إلى: ألم نشرح؟ من سرد النعم التي صنعت الطريق، إلى كشف النعمة التي صنعت الحامل نفسه.

في الضحى: لا يتركك ربك.

وفي الشرح: قد وسَّع صدرك.

في الضحى: العناية تحيط بك.

وفي الشرح: العناية تعمل فيك.

وهذا فرق عظيم؛ لأن الإنسان قد يرى النعمة حوله، لكنه لا يزال ضيقاً في داخله. قد تنيسر له الأسباب، ويبقى صدره حرجاً. قد تنفتح له الطريق، وتبقى نفسه غير قادرة على السير. لذلك جاءت سورة الشرح لتقول إن من أعظم النعم أن لا تكون العناية خارجية فقط، بل أن تتحول إلى سعة داخلية.

فالشرح نعمة أعمق من التيسير الظاهر؛ لأن التيسير قد يأتي ثم يذهب، أما الصدر إذا شُرح صار قادراً على فهم المنح والمحن معاً. صار يرى العطاء ابتلاءً، والابتلاء عطاءً، والتعب طريقاً، والراحة خطراً إذا قطعت القلب عن ربه.

إن الصدر المشروح لا يقرأ الأحداث كما يقرأها الصدر الضيق.

الصدر الضيق يرى العسر سداً.

والصدر المشروح يرى فيه باباً خفياً.

الصدر الضيق إذا تأخر الفرج ظن أن الله تركه.

والصدر المشروح يتعلم من الضحى أن ربه ما ودعه وما قلاه.

الصدر الضيق يطلب يسراً بلا عسر.

والصدر المشروح يسمع: {فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا}.

ولهذا تبدو السورتان كأنهما تربيتان متكاملتان للقلب المؤمن:

الأولى تداوي وحشة الشعور بالترك.

والثانية تداوي ضيق الشعور بالثقل.

وفي حياة الرسالات لا يكفي أن يعلم العبد أنه غير متروك، بل يحتاج كذلك أن يكون صدره واسعاً لما لم يُرفع عنه بعد. فقد يعلم الإنسان أن الله معه،

ومع ذلك يتألم. وقد يوقن أن الطريق حق، ومع ذلك يضيق صدره من كلفة الطريق. فجاءت سورة الشرح لا لتلغي الألم، بل لتمنحه معنى، ولا لتسقط التكليف، بل لتمنح القلب سعة التكليف.

ومن هنا نرى أن السورة لا تخاطب ضعفاً عابراً، بل تبني قابلية الاستمرار. إنها لا تقول لصاحب الرسالة: لقد انتهى التعب. بل تقول له: لقد شُرح صدرك، وُضع عنك وزرك، ورُفع ذكرك، ومع العسر يسر، فإذا فرغت فانصب، وإلى ربك فارغب.

أي إن طريقك لم ينته.

لكنه صار ممكناً.

لا لأن الطريق خفّ كله، بل لأن قلبك وُسّع له.

وهذه من أعمق حقائق التربية القرآنية: أن الله قد يغير الإنسان قبل أن يغير ظرفه، وقد يفتح في القلب نافذة قبل أن يفتح في الواقع باباً، وقد يعطي العبد قدرة على الاحتمال قبل أن يعطيه زوال البلاء.

والناس عادة يطلبون تبديل الخارج، أما الوحي فيبدأ بتكوين الداخل.

لذلك كان صدر النبي ﷺ هو موضع النعمة الأولى في هذه السورة. لأن الرسالة ستواجه تكذيباً، وأذى، وسخرية، وحصاراً، وهجرة، وجهاداً، وابتلاءات متتابة، ولو لم يكن الصدر مشروحاً، لصار كل موقف حجراً جديداً على القلب. لكن الصدر إذا شُرح، لم تعد الأحداث تضيق بصاحبها، بل صار صاحبها أوسع من الحدث.

ليس معنى ذلك أن النبي ﷺ لا يحزن، ولا يتألم، ولا يجد ثقلًا؛ فهو بشر كامل البشرية، محفوظ بالوحي، مؤيد من ربه، ولكنه ليس حجرًا ولا معنى مجردًا. إنما المعنى أن الحزن لا يملكه، والثقل لا يكسره، والضيق لا يحكمه، لأن الله شرح صدره لما هو أعلى من طاقة البشر العاديين.

وهذه السورة بعد ذلك ليست خاصة من كل وجه، مع أنها في أصل خطابها للنبي ﷺ؛ لأن المؤمن يأخذ منها نصيبه على قدر اتباعه وصدقه وحمله. فكل من حمل من الحق نصيبًا احتاج من الشرح نصيبًا. وكل من دخل طريق الدعوة أو الإصلاح أو الصبر أو التربية أو الجهاد المشروع للنفس والواقع، احتاج أن يقرأ هذه السورة لا بوصفها عزاءً فقط، بل بوصفها منهجًا في صناعة القلب القادر.

إنها تقول له: لا تطلب الطريق بلا عسر، بل اطلب صدرًا لا ينهزم بالعسر. ولا تطلب ذكرًا يرفعه الناس، بل كن مع الله يرفع ذكرك بما شاء. ولا تجعل الفراغ قبرًا للهمة، بل اجعله انتقالًا من طاعة إلى طاعة. ولا ترغب إلى النتائج رغبة تنسيك رب النتائج، بل: {وَالِى رَبِّكَ فَارْغَبْ}.

وهكذا تمضي السورة من المنة إلى التكليف، ومن التذكير إلى القانون، ومن القانون إلى العمل، ومن العمل إلى الله.

وهذا هو جمالها المركّز: تبدأ بالصدر، وتنتهي بالرب. وبينهما تُعاد تربية الإنسان كله.

الفصل الثاني

{أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ}: حين يبدأ الفتح من الداخل

تبدأ السورة بهذا الاستفهام التقريري: {أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ}

وليس في الآية خبر مباشر على هيئة: شرحنا لك صدرك. بل جاءت في صورة سؤال، والسؤال هنا يوقظ الاعتراف، ويستدعي الذاكرة، ويجعل المخاطب حاضراً في شهود النعمة، لا متلقياً لها من بعيد.

فالمنة إذا جاءت في صورة خبر قد يسمعها الإنسان كمعنى خارجي. أما إذا جاءت في صورة سؤال، فإنها تطرق الباب من الداخل: ألم يحدث هذا؟ ألم تعرفه؟ ألم تجد أثره في نفسك؟ ألم يكن صدرك قبل ذلك على حال، ثم صار على حال أخرى؟

وهذا الأسلوب القرآني لا يقرر الحقيقة فحسب، بل يربّي الوعي بها. لأن النعمة لا تكتمل في أثرها حتى تُعرَف. وكم من نعم عظيمة تذبل في حياة الناس لأنهم لا يشهدونها، ولا يسمونها، ولا يربطونها بالله. تمر عليهم كأنها صدفة نفسية، أو قوة ذاتية، أو نضج مكتسب، بينما حقيقتها أنها فتح من الله.

والآية لا تقول: ألم نشرح لك طريقك.

ولا تقول: ألم نشرح لك قومك.

ولا تقول: ألم نشرح لك أسباب النجاح.

بل تقول: {صَدْرَكَ}.

لأن الصدر هو المجال الأول للرسالة. قبل المنبر، وقبل الجمهور، وقبل الفعل، وقبل التاريخ. هناك في الداخل تبدأ المعركة الأولى. وهناك يُهزم الإنسان أو يثبت. وهناك يضيق أو يتسع. وهناك يصير التكليف نورًا أو عبئًا أعمى.

والشرح في أصله يدل على الفتح والتوسعة. ومنه شرح الكلام، إذا كُشف معناه، وشرح الصدر، إذا زال عنه الحرج، واتسع للحق، واطمأن به، وصار قابلاً لحمله. وليس الشرح هنا مجرد ارتياح نفسي مؤقت، ولا انبساط مزاجي يذهب ويجيء، بل هو إعداد رباني عميق يجعل القلب قادرًا على التلقي، والفهم، والصبر، والمضي.

فالإنسان قد يملك عقلاً، ومع ذلك لا يحتمل الحق.

وقد يملك لغة، ومع ذلك يعجز عن البلاغ.

وقد يملك حجة، ومع ذلك ينهار أمام الأذى.

وقد يعرف الطريق، ومع ذلك يضيق صدره بالمشقة.

لهذا كان شرح الصدر أصلاً.

شرح الصدر ليس رفاهية روحية.

إنه بنية داخلية لحمل الأمانة.

وحين نقول إن الله شرح صدر نبيه ﷺ، فنحن لا نتحدث عن معنى بشري محدود، ولا نشبه فعل الله بأفعال خلقه، فالله سبحانه ليس كمثله شيء، وإنما نثبت ما أثبتته النص على وجه يليق بجلاله، ونفهم أثر النعمة كما دل عليه القرآن: سعة في الصدر، وقوة في الاحتمال، وطمأنينة في التلقي، وثبات أمام ثقل الرسالة.

وهذا المعنى يحتاجه كل مؤمن بحسبه. لأن الضيق ليس دائماً علامة ضعف إيمان فقط؛ قد يكون أثراً لثقل الطريق، أو كثرة الواردات، أو ضغط البلاء، أو تزامم المسؤوليات. لكن الخطر أن يتحول الضيق إلى حاكم على الرؤية. فإذا حكم الضيق، صغر العظيم، وكبر الصغير، وضيق الواسع، وظن العبد أن الباب الذي أغلق أمامه هو الكون كله.

أما شرح الصدر فيعيد الأشياء إلى أحجامها.

يجعل البلاء بلاءً، لا إلهاً يُخاف منه.

ويجعل العدو عدواً، لا قدراً مطلقاً.

ويجعل التعب تعباً، لا حكماً نهائياً على الطريق.

ويجعل المستقبل غيباً بيد الله، لا ظلمة مفتوحة على الوهم.

وهنا نفهم لماذا كانت السورة بهذا الابتداء. فالمشكلة الكبرى في الإنسان ليست دائماً أن العسر كبير، بل أن الصدر صغير أمامه. فإذا كبر الصدر بالله، صار العسر محدوداً مهما اشتد. وإذا ضاق الصدر، صار أدنى عسر كالجبل.

إن الله لا يربي عباده الكبار بإعفائهم من الأثقال دائماً، بل بتوسيعهم لها. يهبهم قلباً لا ينهار عند أول ارتطام، وبصيرة لا تتطفئ عند أول تأخر، ونفساً لا تجعل الألم دليلاً على الخذلان. وهذا من أسرار السورة: أنها لا تقول: ألم نرفع عنك كل مشقة؟ بل تقول أولاً: ألم نشرح لك صدرك؟

كأن الشرح يسبق الرفع.

وكان الاتساع يسبق التيسير.

وكان الله يهيئ الداخل قبل أن يكشف الخارج.

وفي هذه الآية أيضاً خصوصية عجيبة في قوله: {لَكَ}.

لم يقل: ألم نشرح صدرك فقط. بل قال: {لَكَ صَدْرَكَ}.

وفيهما قرب ولطف وتخصيص. كأن النعمة مفصلة على قدر الرسالة، وعلى قدر العبد المختار لها. فليس الشرح معنى عاماً مبهمًا، بل شرح لك، لأجلك، لما أنت ماضٍ إليه، لما ستلقاه، لما ستبلغه، لما ستحتمله.

وهذه اللام تفتح باباً عظيماً في فهم التربية الربانية: أن الله يعطي من السعة على قدر ما يقدر من المهمة. فليست كل الصدور تُشرح للنوع نفسه من الحمل، ولا بالقدر نفسه من الاحتمال. وقد يشرح الله صدر عبدٍ للصبر، وآخر للعلم، وآخر للجهد، وآخر للتربية، وآخر للإصلاح، وآخر للعبادة الخفية، وآخر لكلمة حق يدفع ثمنها طويلاً.

ولذلك لا ينبغي للإنسان أن يحسد غيره على طريقه؛ فكل طريق شره، ولكل حمل صدره، ولكل أمانة إعدادها.

وإذا سأل العبد ربه شرح الصدر، فهو لا يسأله مجرد الهدوء، بل يسأله أن يجعله أكبر من ظرفه، وأصدق من خوفه، وأوسع من ألمه، وأثبت من تقلبات الطريق.

ولهذا كان من دعاء موسى عليه السلام حين أرسل إلى فرعون:
{رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي}.

فهو لم يبدأ بطلب إسقاط فرعون، ولا بإزالة كل مانع، بل بدأ بالصدر. لأن مواجهة الطغيان قبل شرح الصدر قد تتحول إلى رعب، وحمل الرسالة قبل شرح الصدر قد يتحول إلى اختناق، ومخاطبة الناس قبل شرح الصدر قد تتحول إلى غضب أو عجز أو فرار.

شرح الصدر هو أن يتسع الداخل للحق قبل أن يتحرك الخارج به.

ولعل من أرقى ما تربيته هذه الآية فينا أن نراجع مقاييسنا للنصر والهزيمة. فقد يعد الإنسان نفسه مهزومًا لأن ظرفه لم يتغير، بينما يكون الله قد منحه نصرًا داخليًا لا يراه الناس: صدرًا أوسع، ويقينًا أهدأ، وقدرة أعلى على الصبر، وفهمًا أعمق لمعنى الطريق. وهذا النصر الداخلي هو الذي تصنع منه الانتصارات الكبرى بعد ذلك.

كم من إنسان تغيرت ظروفه ولم يتغير ضيقه.

وكم من إنسان بقي في عسره، لكنه خرج من سجنه الداخلي.

الأول أزيح عنه شيء من الخارج، والثاني شُرح له صدره.

والفرق بينهما بعيد.

إن شرح الصدر ليس أن تختفي الغيوم كلها، بل أن يدخل القلب نور يعرف به أن فوق الغيوم رباً يدبر، ويعلم، ويرى، ويلطف، ويهدي من يشاء إلى صراط مستقيم.

ومن هنا يبدأ الكتيب كله: من هذه الآية.

لأنها المفتاح.

كل ما بعدها تفصيل لها أو أثر من آثارها.

فمن شُرح صدره، خف عنه الوزر.

ومن خف عنه الوزر، صار مهياً للرفع.

ومن عرف الرفع من الله، لم تكسره مقاييس الناس.

ومن أدرك أن مع العسر يسراً، لم يستسلم للعسر.

ومن فرغ فنصب، لم يصنع من الراحة صنماً.

ومن رغب إلى ربه، لم يضل في فتنة العمل ولا في فتنة الإنجاز.

هكذا تبدأ السورة من الداخل، لكنها لا تبقى فيه حبيسة.

تبدأ بالقلب، ثم تدفعه إلى الطريق.

تسكب فيه السعة، ثم تطالبه بالنصب.

تريه اليسر، ثم تمنعه من الخمول.

ترفع عنه، ثم ترفعه.

وفي النهاية ترده إلى الله.

وهذا هو البناء العجيب لسورة قصيرة، لكنها تملك قدرة نادرة على إعادة

الإنسان إلى مركزه الصحيح:

صدر مشروح.

حمل موضوع.

ذكر مرفوع.

عسر مصحوب بيسر.

عمل بعد عمل.

ورغبة لا تنتهي إلا إلى الله.

الفصل الثالث

شرح الصدر: ليس راحة رخوة، بل سعة مسؤولة

قد يظن بعض الناس أن شرح الصدر يعني أن يصير الإنسان ناعماً أمام الحياة، خفيفاً من كل ثقل، بعيداً عن كل قلق، كأن السكينة لا تولد إلا في أرض بلا معركة، وكأن الطمأنينة لا تكون إلا حين تخلو الطريق من الحجارة. وهذا فهم ناقص؛ لأن سورة الشرح لا تقدم صدرًا مسترخياً، بل صدرًا مؤهلاً. لا تمنح راحة الهارب، بل سعة الحامل. لا تقول للإنسان: ستُغفَى من الرسالة، بل تقول له: ستُوسَّعَ لها.

الشرح هنا ليس إلغاءً للتعب، بل تهذيب لعلاقة القلب به.

فالصدر المشروح لا يكون بلا وجع، ولكنه لا يجعل الوجع سيِّداً عليه. ولا يكون بلا خوف بشري، ولكنه لا يسمح للخوف أن يصير عقيدة في المستقبل. ولا يكون بلا حزن، ولكنه لا يسلم للحزن مفتاح المعنى. إنما هو صدر يتألم دون أن يتعفن، ويحزن دون أن ينطفئ، ويتعب دون أن يلعن الطريق.

وهذه منزلة دقيقة.

فالناس يخلطون كثيراً بين السعة والراحة. السعة أعمق من الراحة؛ لأن الراحة قد تكون توقفاً، أما السعة فهي قدرة على الاستمرار. الراحة قد يمنحها

الفراغ، أما السعة فيمنحها الله للقلب وهو داخل العمل، داخل الابتلاء، داخل النداء الثقيل الذي لا يترك صاحبه ينام طويلاً على وسادة الغفلة.

ولهذا جاءت السورة في آخرها: {فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ}

وهذا يكشف أن شرح الصدر في أولها لا يريد أن يصنع إنساناً متخففاً من الواجب، بل إنساناً قابلاً لمزيد من النصب. كأن السورة تقول: شرحنا صدرك لا لتستقيل من الطريق، بل لتقدر عليه. وضعنا عنك وزرك لا لتجلس، بل لتنهض أخف. رفعنا لك ذكرك لا لتسكن إلى الذكر، بل لتزداد رغبة إلى ربك. وأريناك اليسر مع العسر لا لتحتال على العسر، بل لتعرف أن العسر لا يملك المشهد كله.

إنها سورة تكسر وهم الراحة السهلة.

فالعبد الصادق لا يبحث عن حياة بلا كلفة، بل عن قلب لا يفسد بالكلفة. لا يبحث عن طريق بلا عوائق، بل عن بصيرة لا تجعل العائق نهاية الطريق. لا يبحث عن مقام بلا تعب، بل عن تعب لا يسرق منه وجهته.

ومن هنا يكون شرح الصدر نعمة خطيرة؛ لأنها ليست ترفاً روحانياً يضاف إلى حياة الإنسان، بل تكليف خفي. فمن شُرح صدره صار مطالباً بما لا يطالب به المختنقون. ومن وُسِّع للمعنى صار عليه أن يحمله. ومن أُعطي قدرة على الفهم والصبر والبيان لم يعد عذره كعذر من لم يُفتح له شيء من ذلك.

النعم ليست زينة فقط.

النعم مسؤوليات.

وقد يكون من أعظم البلاء أن يُشرح صدر إنسان لمعنى عظيم، ثم يطلب حياة صغيرة. أن يرى الحق واضحًا، ثم يفتش عن عذر للغموض. أن يتسع صدره للرسالة، ثم يضيّقه هو بالشهوات، أو بالخوف، أو بحسابات الناس، أو بالرغبة في السلامة الرخيصة.

الصدر المشروح لا يليق به أن يعيش في زوايا التردد الطويل.

لأن الشرح إذا لم يتحول إلى عمل، صار حجة على صاحبه. والسعة إذا لم تنجب موقفًا، تحولت إلى ترف داخلي. والطمأنينة إذا لم تثمر ثباتًا، كانت شعورًا جميلًا لا وزن له في ميزان الرسالة.

لهذا يختلف الشرح القرآني عن الارتياح النفسي العابر. الارتياح قد يأتي من خبر سعيد، أو مكان هادئ، أو غياب مؤقت للمشكلات، أما شرح الصدر فيأتي من اتصال القلب بالله، ومن فهم موضعه في طريق العبودية، ومن إدراك أن الحياة ليست مجموعة حوادث متناثرة، بل ابتلاء منظم تحت علم الله وحكمته، وأن العبد لا يرى كل الخيوط، لكنه مأمور أن يستقيم وهو يجهل كثيرًا مما يدبره الله له.

والشرح بهذا المعنى لا يجعل القلب متعاليًا على بشريته. لا يحوله إلى صخر. ولا يطلب منه أن يبتسم في كل جرح. هذه ليست تربية القرآن. القرآن لا يلغي

الدموع، لكنه يمنعها أن تتحول إلى اعتراض. ولا يلغي الألم، لكنه يمنع أن يتحول إلى سوء ظن بالله. ولا يلغي التعب، لكنه يضع له وجهة.

ومن أرقى ما تصنعه سورة الشرح أنها تعطي القلب لغة جديدة لفهم أثقاله.

فالوزر لم يُترك على الظهر.

والذكر لم يُدفن تحت السنة المكذابين.

والعسر لم يُجعل وحده.

والفراغ لم يُترك للعبث.

والرغبة لم تُبعثر في الخلق.

كل شيء في السورة يُعاد إلى موضعه.

الصدر يُشرح.

الوزر يُوضع.

الذكر يُرفع.

العسر يُحاصر باليسر.

الفراغ يُملأ بالنصب.

والقلب يُرد إلى ربه.

إنها هندسة موجزة للداخل المؤمن؛ لكنها هندسة لا تقوم على التنظير البارد، بل على تربية نبوية حية. فالآيات لا تشرح مفهوماً مجرداً، بل تخاطب رسولاً كريماً ﷺ في قلب الطريق. تخاطبه وقد حمل من الوحي ما لا تطيقه الجبال، وواجه من التكذيب ما يمزق صدور الرجال، ورأى من انقلاب الناس على

الحق ما يجعل النفس البشرية تتألم. فجاء الخطاب لا ليقول له: لا يوجد ثقل، بل ليقول: لقد وُسِّعت للثقل. لا ليقول: لا يوجد عسر، بل ليقول: ليس العسر وحده. لا ليقول: انتهى العمل، بل ليقول: إذا فرغت فانصب.

ومن هنا يتبين أن شرح الصدر ليس حالة وجدانية معزولة، بل أصل في بناء صاحب الرسالة.

إنه أن يحمل الإنسان قلبًا لا يتشجع أمام المعنى الكبير.
أن يستطيع استقبال الحق دون حرج.
أن يرى التكليف كرامة لا عقوبة.
أن يفهم أن البلاء ليس نفيًا للعناية.
أن يدرك أن الله قد يربي عبده بالثقل كما يربيهِ بالعطاء.
أن يعرف أن الضيق إذا دخل القلب لا ينبغي أن يتحول إلى تفسير شامل للوجود.

وهذا مهم جدًا؛ لأن أكثر انهيارات الإنسان تبدأ حين يجعل إحساسه المؤقت مرجعًا نهائيًا للحقيقة. يشعر بالضيق، فيظن أن الطريق خاطئ. يشعر بالتعب، فيظن أن الله لم يفتح له. يشعر بتأخر النتيجة، فيظن أن السعي ضائع. يشعر بثقل الحمل، فيظن أنه غير مأمور بالثبات.

فتأتي سورة الشرح لتفصل بين الشعور والحقيقة.

قد تشعر بالعسر، لكن الحقيقة أن معه يسرًا.
قد تشعر بالثقل، لكن الحقيقة أن الله يضع عن عبده ما يشاء.

قد تشعر بخفاء الأثر، لكن الحقيقة أن الرفع بيد الله.
قد تشعر بالفراغ بعد عمل، لكن الحقيقة أن الفراغ باب نصب جديد.
قد تشعر بأن رغبتك تتبعثر، لكن الحقيقة أن الوجهة: {وَالِى رَبِّكَ فَارْغَبْ}.
إنها لا تكذب الشعور، لكنها لا تؤلهه.

والفرق بين القلب المهتدي والقلب المضطرب أن الأول يسمع شعوره، لكنه يحاكمه إلى الوحي. أما الثاني فيسمع شعوره، ثم يجعل منه وحيًا خاصًا، يحل به الطريق والناس والمستقبل وربما القدر كله. وهنا يولد الانكسار الرديء: لا من الألم نفسه، بل من تفسير الألم بعيدًا عن الله.

أما الصدر المشروح، فهو صدر تعلم أن يسأل: ماذا يريد الله مني في هذا الموضع؟ لا: لماذا لم تُصنع الحياة كلها وفق راحتي؟
وهذا التحول وحده كافٍ ليقلب معنى الابتلاء.

فالعبد حين يكون مركزه نفسه، يرى كل مشقة إهانة.
وحين يكون مركزه ربه، يرى المشقة موضع عبودية.
وحين يكون مركزه صورته عند الناس، ينهار إذا لم يُرفع ذكره بينهم.
وحين يكون مركزه الله، يعلم أن الذكر إن رُفع بحق فهو فضل، وإن حُجب عن الناس فالله لا يضيع عملاً صالحًا.

سورة الشرح تربي القلب على هذه النقلة: من مركزية الجرح إلى مركزية الله. من الانغلاق على الثقل إلى شهود المعونة. من قراءة الحياة بمنطق الضغط وحده إلى قراءتها بمنطق التربية.

وهنا تظهر دقة قوله تعالى: {أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ} قبل قوله: {وَوَضَعْنَا عَنكَ وَزْرَكَ}.

كأن الصدر إذا شُرح، صار وضع الوزر محسوساً. لأن الإنسان الضيق قد يُرفع عنه بعض الثقل، لكنه لا يشعر، فقد صار الضيق عادة في روحه. وقد تأتته النعم، لكنه يستقبلها بصدر منغلق، فتصل ولا تثمر. أما الصدر المشروح فيعرف النعمة، ويتذوقها، ويرى أثرها، ويستحيي من ربه أن يقابلها بالغفلة.

لذلك كان أول ما يحتاجه الإنسان ليس فقط أن تنزل عليه النعمة، بل أن يُفتح داخله لاستقبالها. كم من إنسان محاط بأسباب النجاة، لكنه لا ينجو؛ لأن صدره مغلق. وكم من إنسان في ظاهر قاسٍ، لكنه يملك من السعة ما يجعله يرى يد اللطف في أضييق الزوايا.

وليس معنى هذا أن الشرح يصنع إنساناً لا يشتكي إلى الله. بل على العكس، الصدر المشروح يحسن الشكوى؛ لأنه لا يشكو من الله، بل يشكو إلى الله. لا يجعل شكواه اتهاماً للقدر، بل يجعلها عبودية افتقار. يقول بلسان حاله: يا رب، أنت تعلم الثقل، وأنت أرحم بي من نفسي، فافتح لي في هذا العسر باب الرشد، ولا تكنني إلى ضيقي.

وهذا هو الفرق بين الشكوى المؤمنة والشكوى الجارحة للإيمان. الأولى تصعد إلى الله، والثانية تدور حول النفس حتى تخنقها.

إن شرح الصدر يجعل الإنسان قادراً على أن يكون صادقاً في ألمه، مؤدباً مع ربه في الوقت نفسه. لا يتصنع قوة مزيفة، ولا يطلق لسانه بما يفسد يقينه.

يبكي إن بكى، لكنه لا يسيء الظن. يتعب إن تعب، لكنه لا يترك الطريق.
يطلب الفرج، لكنه لا يعبد الفرج. ينتظر اليسر، لكنه لا ينكر أن الله معه في
العسر.

وهذه من أعلى ثمرات السورة: أن يتعلم القلب صحبة الله في الضيق، لا
انتظار الله عند نهاية الضيق فقط.

كثيرون لا يرون الله إلا عند الفرج.
أما سورة الشرح فتقول: اليسر مع العسر.
أي لا تنتظر انتهاء المشقة لتؤمن باللفظ.
ابحث عنه معها.

في داخلها.

في طياتها.

في الشيء الذي أبقاك ولم تكن تعرف كيف بقيت.
في السكينة الصغيرة التي زارتك وسط الاضطراب.
في الكلمة التي ثبتتك.
في الفهم الذي أضاء لك.
في الصبر الذي لم يكن منك وحدك.
في الباب الذي لم يفتح، لكنه منعك من هاوية لم تكن تراها.

هذا هو اليسر المصاحب.

ليس ضجيجًا دائمًا.

ولا معجزة ظاهرة في كل لحظة.

بل خيط من لطف الله يجري داخل النسيج الخشن للعسر.

والصدر المشروح هو الذي يلتقط هذا الخيط.

أما الصدر الضيق فلا يرى إلا الخسونة.

ومن هنا كان الشرح أول النعم؛ لأنه يغيّر جهاز الرؤية. لا يبدل الأشياء كلها، لكنه يبدل طريقة تلقيها. ومن تبدلت طريقة تلقيه تبدلت حياته، ولو بقيت بعض ظروفه كما هي.

فليس كل فتح أن ينفتح الباب.

قد يكون الفتح أن ينفتح القلب وهو أمام باب مغلق.

وليس كل رزق أن يأتي الشيء الذي نحب.

قد يكون الرزق أن نفهم لماذا مُنِعَ عنا، أو أن نثبت حتى يأتي، أو أن نُصرف عنه إلى ما هو أذكى.

وليس كل يسر أن تزول المشقة.

قد يكون اليسر أن لا تسحقك المشقة.

سورة الشرح تعلم هذا كله دون أن تطيل. كأنها تضع في ثمانية آيات مختصرة علماً كاملاً في تربية القلب العامل. ولا عجب؛ فالقرآن لا يحتاج إلى كثرة اللفظ ليخلق المعنى الكبير. كلمة واحدة منه قد تهدم ظلاماً عمره سنوات في

النفس، وقد تفتح في القلب بابًا لم تفتحه مجلدات من الكلام. {أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ}

هذه الآية وحدها تكفي أن يسأل الإنسان نفسه: ما الذي أطلبه حقًا؟ هل أطلب خفة الحياة، أم سعة القلب؟ هل أطلب أن لا أتعب، أم أن لا يفسدني التعب؟ هل أطلب أن يختفي العسر، أم أن أبصر اليسر معه؟ هل أطلب أن يحبني الناس، أم أن يرفع الله ذكري بالحق حيث شاء وكيف شاء؟ هل أطلب نهاية العمل، أم صدق الرغبة إلى الله بعد كل عمل؟

بهذه الأسئلة ينتقل الإنسان من الطفولة الروحية إلى رشد العبودية.

فالطفل في طريق الإيمان يطلب من الله أن يجعل كل شيء سهلًا.

أما الراشد فيسأل الله أن يجعله عبدًا ثابتًا في السهل والصعب.

الطفل يفرح باليسر إذا جاء وحده.

والراشد يعرف اليسر حتى وهو محاط بالعسر.

الطفل يظن أن التعب علامة خطأ.

والراشد يعلم أن بعض التعب توقيع الطريق الصحيح على جسد السالك.

ولذلك كانت سورة الشرح سورة رشد، لا سورة مواساة سطحية.

إنها تقول لصاحبها: لقد نلت من الله نعمة الصدر، فاحذر أن تعيش بعقلية الضيق. لقد عرفت أن مع العسر يسرًا، فاحذر أن تفسر الحياة كأن العسر مطلق. لقد قيل لك: إذا فرغت فانصب، فاحذر أن تجعل الفراغ مقبرة المعنى. لقد وُجهت إلى ربك، فاحذر أن تنتهي رغبتك عند الناس أو النتائج أو الذات.

وبهذا تصوير السورة ميزاناً داخلياً.

كلما ضاق القلب، عاد إلى أولها.

وكلما ثقل الحمل، تذكر وسطها.

وكلما فرغ من عمل، سمع آخرها.

وكلما تشتتت رغبته، ردها إلى ربه.

إنها ليست سورة تُقرأ في لحظة انكسار فقط.

بل سورة تُتخذ رفيقاً في الطريق.

تقرأها حين يبدأ العمل، حتى لا تغتر.

وتقرأها حين يشتد العسر، حتى لا تيأس.

وتقرأها حين يأتي اليسر، حتى لا تنسى.

وتقرأها حين تنجز، حتى لا تقف عند الإنجاز.

وتقرأها حين يرفع الله ذكرك، حتى تعلم أن الرفعة ليست منك.

وتقرأها حين لا يراك الناس، حتى تعلم أن الذكر الحقيقي ليس محكوماً

بضجيجهم.

هكذا يصبح شرح الصدر مدرسة.

ليس شعوراً يأتي ثم يمضي.

بل طريقة في العيش مع الله.

الفصل الرابع

{وَوَضَعْنَا عَنْكَ وِزْرَكَ}: ثقل ما قبل الانطلاق

بعد ذكر شرح الصدر يأتي ذكر وضع الوزر: {وَوَضَعْنَا عَنْكَ وِزْرَكَ}

والانتقال هنا دقيق. فالصدر إذا شُرح، صار مهياً لأن يخف الحمل الذي كان يثقله، أو أن يفهم معنى التخفيف الذي جرى له. ولا يمكن أن نقرأ وضع الوزر بعيداً عن مقام النبوة وعصمتها فيما يجب لها؛ فالخطاب للنبي ﷺ، وهو أكرم الخلق على الله، وقد غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، ورفع مقاماً لا يلحقه فيه أحد. فلا يجوز أن يفهم الوزر هنا على وجه يخل بجلال مقامه ﷺ، وإنما يفهم في ضوء ما يليق به: ثقل عظيم أزاحه الله عنه، وحمل كان يثقل ظهره، وغمٌّ أو كلفة أو ما كان قبل تمام الفتح الرباني عليه، مما امتن الله بوضعه عنه.

والقرآن لم يقل: وأزلنا وزرك.

بل قال: {وَوَضَعْنَا عَنْكَ}.

والوضع يوحى بحمل كان على الظهر، ثم أنزل. بشيء ثقل كان يصحب الحركة، فإذا وُضع تغيرت هيئة السائر كلها. فالإنسان المثقل لا يمشي كما يمشي الخفيف. نظرته تختلف. أنفاسه تختلف. قدرته على الالتفات تختلف. حتى الطريق نفسه يبدو له أطول، لا لأن الطريق تغير، بل لأن الظهر محني تحت الثقل.

ثم تأتي الآية التالية لتصوير شدة ذلك الحمل: {الَّذِي أَنْقَضَ ظَهْرَكَ}

وهذا تعبير بالغ القوة. ليس ثقلاً عادياً. إنه ثقل كاد يُسمع له أثر في الظهر. كأن الحمل بلغ حدّاً يجعل العظام نفسها تشكو. وهذا التصوير لا يراد به تجسيم المعنى بقدر ما يراد به إظهار شدته في النفس والحياة.

إن هناك أثقالاً لا تُرى، لكنها تكسر الإنسان أكثر مما تكسره الأحمال الظاهرة.

ثقل السؤال.

ثقل النداء.

ثقل الماضي.

ثقل انتظار الفتح.

ثقل الشعور بعظمة الأمانة.

ثقل أن ترى الناس يمضون إلى الهاوية وأنت مأمور أن تناديهم.

ثقل أن تكون رحمة للعالمين في عالم يقابل الرحمة بالتكذيب والأذى.

والرسالة ليست فكرة جميلة معلقة في الهواء. إنها حمل. والوحي حين ينزل لا ينزل كعبارة أدبية تزين اللسان، بل كأمانة تهز الكيان. وقد وصف الله القول الذي سينزل على النبي ﷺ بقوله: {إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا}. فهذا الدين في حقيقته نور، لكنه نور له وزن. هداية، لكنها هداية تكلف صاحبها أن يخرج من نفسه، ومن راحته، ومن مألوف قومه، وأن يقف في وجه الباطل وهو يعلم أن الباطل لن يبتسم له.

من هنا نفهم أن وضع الوزر ليس مجرد تخفيف شخصي، بل تهيئة رسالية. فالظهر الذي أنقضه الثقل لا بد أن يُخفف عنه ليحمل ما بعده. والصدر الذي شُرح لا بد أن يرافقه ظهر لا ينكسر. كأن السورة تجمع بين الداخل والحامل: الصدر محل السعة، والظهر موضع الحمل. فإذا اتسع الصدر، وخف الظهر، صار العبد مهياً للمضي.

وهذا البناء في غاية الجمال.

أولاً: شرح الصدر.

ثانياً: وضع الوزر.

ثالثاً: رفع الذكر.

ثم بعد ذلك: قانون العسر واليسر.

ثم: العمل المتجدد.

ثم: الرغبة إلى الله.

كأن السورة تقول إن الطريق إلى العمل العالي لا يبدأ بالأوامر فقط، بل يبدأ بتربية الحامل. فالنفوس المنهكة من الداخل لا يكفي أن يقال لها: اعملوا. والظهور المنقضة لا يكفي أن تُدفع إلى الطريق دفعاً. لا بد من شرح، ووضع، ورفع، ثم تكليف.

وهذا من رحمة التربية القرآنية: أنها لا تتعامل مع الإنسان كآلة واجبات، بل ككائن له صدر يضيق ويتسع، وظهر يثقل ويخف، وذكر قد يوضع في الأرض أو يرفعه الله، وعسر قد يحيط به، ويسر ينبغي أن يبصره، وفراغ قد يفسده، ورغبة تحتاج أن تُرد إلى الله.

الإنسان في القرآن ليس رقمًا في مشروع.

إنه قلب يُربى.

وصدر يُشرح.

وظهر يُرحم.

ووجهة تُصحح.

ومن هنا يجب أن نحذر من القسوة التي تتخفى أحيانًا باسم الرسالة. فبعض الناس يطلبون من العاملين للحق أن يحملوا بلا شرح، وأن يمضوا بلا وضع أثقال، وأن يصبروا بلا تذكير باليسر، وأن يعملوا بلا رغبة إلى الله. وهذا ليس منهج القرآن. القرآن يطالب، نعم، لكنه يربي قبل أن يطالب، ويكشف النعمة قبل أن يأمر بالنصب، ويضع القلب في حضرة المنة قبل أن يدفعه إلى الميدان.

إن قوله: {وَوَضَعْنَا عَنْكَ وِزْرَكَ} يعلمنا أن الله يعلم الأثقال الخفية. يعلم ما لا يراه الناس على ظهرك. يعلم الثقل الذي لا تحسن شرحه. يعلم الحمل الذي لا يظهر في ملامحك إلا صمتًا أو تعبًا أو انطفاءً خفيًا في العين. يعلم ما أنقض ظهرك، ولو ظن الناس أنك بخير.

وهذه وحدها مواساة عظيمة.

أن تعرف أن الله لا يرى ظاهر مشيك فقط، بل يعلم ما تحمله وأنت تمشي. لا يسمع كلامك فقط، بل يعلم ما وراء الكلام من ثقل. لا يحاسبك كما يحاسبك الناس على نتائج ظاهرة، بل يعلم الطريق كله: بدايته، وجرحه، وكلفته، وما قاومته في نفسك حتى بقيت واقفًا.

لكن السورة لا تقف عند علم الله بالثقل؛ بل تعلن فعل الله في التخفيف:
{وَوَضَعْنَا}.

فالله لا يعلم فقط.

بل يضع.

يلطف.

يرفع بعض ما يثقل.

يفتح في القلب بابًا.

يمحو ما شاء.

يغفر.

يؤيد.

يرتب من الأسباب ما لا يخطر للعبد.

يجعل الحمل الذي كان يكسر الظهر ذكرى تُذكر لا قيدًا يبقى.

وهذا هو الفرق بين الوعي بالله والوعي المجرد بالمأساة. من يملك وعيًا بالمأساة فقط قد يغرق في وصف الثقل، ويصير خبيرًا بجراحه، لكنه لا يخرج منها. أما من يقرأ الثقل في ضوء الله، فإنه لا ينكر الجرح، لكنه ينتظر فعل الله فيه. لا يقول: لقد ثقلت فقط. بل يقول: الذي يعلم الثقل قادر أن يضعه عني.

ومن هنا يتربى الرجاء.

ليس الرجاء إنكارًا للوزر.

بل ثقة بمن يضع الوزر.

وليس التفاؤل القرآني سذاجة تتجاهل الظهر المنقض.
بل يقين يرى الثقل ويرى رب الثقل.

وهذا مهم في زمن صار بعض الناس يظنون أن القوة تعني ألا نعترف بالتعب، وأن الإيمان يعني ألا نقول: لقد ثقل الحمل. لكن القرآن نفسه يقول: {أَنْقَضَ ظَهْرَكَ}. يعترف بشدة الحمل، ثم يربطه بفعل الله: {وَوَضَعْنَا عَنْكَ}.

إن التعب الذي يدخل القرآن لا يبقى عارياً.
يدخل مثقلاً، ثم يخرج محاطاً بالمعنى.

وسورة الشرح بهذا تعلمنا أدباً بالغاً: لا نجمل الأوجاع بالكذب، ولا نتركها بلا إيمان. نقول: كان ثقیلاً. نعم. لكنه لم يكن خارج علم الله. ونقول: أنقض الظهر. نعم. لكن الله وضع. ونقول: عسر. نعم. لكن معه يسر.

هذه ليست لغة هروب.

هذه لغة عبد يرى المشهد كاملاً بقدر ما أذن له الوحي.

وفي حياة كل إنسان وزر ما. قد لا يكون وزراً بمعنى الذنب وحده. قد يكون حملاً من الندم، أو كلفة من الذاكرة، أو أثراً من طريق طويل، أو شعوراً بالعجز، أو خوفاً من مهمة، أو ثقلاً من أخطاء سابقة، أو همّاً من واقع لا يملك تغييره كله.

وهنا تمنحه السورة باباً لا ليقيس نفسه بمقام النبوة، فذلك مقام مختص جليل، ولكن ليأخذ من الهداية ما يليق به: أن الله يضع الأوزار. أن الظهر لا ينبغي

أن يبقى محنياً إلى الأبد. أن ما أثقل الأمس لا يلزم أن يحكم الغد. أن في القرب من الله تخفيفاً لا تصنعه كثرة الشكوى إلى الناس.

بعض الأثقال لا يضعها إلا الله.

قد يواسيك الناس، لكنهم لا يدخلون إلى موضع الحمل.
قد ينصحنك، لكنهم لا يملكون رفع ما استقر في العظم.
قد يحبونك، لكن محبتهم لا تكفي وحدها لإزالة ما أنقض ظهرك.

أما الله، فهو يعلم موضع الوزر، وقدر الوزر، وتاريخ الوزر، واللحظة التي بدأ فيها، واللحظة التي يضعه فيها عنك بحكمته. سبحانه، لا يخفى عليه شيء، ولا يشبه فعله فعل خلقه، وهو أرحم بعبده من كل راحم.

ومن عظمة السورة أنها تجعل التخفيف سابقاً على الرفع: {وَوَضَعْنَا عَنْكَ

وِزْرَكَ}

ثم: {وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ}

فالذكر لا يرتفع ارتفاعاً صحيحاً والظهر مسحوق تحت وزر لم يوضع. قد يشتهر الإنسان وهو محطم، وقد يعلو اسمه عند الناس وهو منقض في داخله، وقد تصفق له الجماهير وهو عاجز عن حمل نفسه. أما الرفع الرباني فليس شهرة جوفاء؛ إنه يأتي في سياق شرح ووضع. أي إن الله لا يرفع ذكر عبده رفعا يفسده، بل يسبقه بما يهيئه: شرح في الصدر، وتخفيف عن الظهر.

وهذا درس عظيم لأصحاب الأعمال والمعاني. لا تطلب الرفع قبل الشرح. لا تطلب أن يعرفك الناس قبل أن يطهرك الله من الأثقال التي قد تفسدك إذا

عُرفت. لا تستعجل الذكر قبل أن يسلم صدرك من حرج الطريق، وقبل أن يوضع عن ظهرك ما يمنعك من حمل الرفعة بأدب.

فكم من إنسان رفعه الناس قبل أن يتسع صدره، فاختنق بالشهرة. وكم من إنسان لمع اسمه قبل أن يخف ظهره، فصار اللمعان عبئاً جديداً. وكم من إنسان طلب الذكر، فلما جاءه بلا تربية، كشف ضعفه لا فضله.

أما النبي ﷺ، فقد رباه ربه، وشرح صدره، ووضع عنه وزره، ورفع له ذكره رفعا لا نظير له في الخلق. رفعا مقرونا بالتوحيد، وبالأذان، وبالشهادة، وبالصلاة، وبالمحبة، وبالاتباع، لا رفع زينة ولا دعاية ولا سلطان دنيوي مجرد.

ومن هنا يتعلم المؤمن أن الرفعة الآمنة هي التي تأتي من الله، بعد صناعة الداخل.

والآية تعلمنا كذلك أن من رحمة الله أن لا يبقى الإنسان مرتهاً لما أثقله. فهناك لحظة وضع. لحظة ينزل فيها الحمل. قد لا ينسى الإنسان كل ما جرى، لكنه لا يعود محكوماً به. قد تبقى الذاكرة، لكن ينزع الله منها السم. قد يبقى الأثر، لكنه لا يبقى قيذاً. قد يتذكر العبد ضعفه السابق، لكنه يتذكره ليحمد، لا ليغرق.

وهذا من أجمل صور اللطف: أن لا يمحو الله كل آثار الطريق، لكنه يبذل علاقتك بها. يجعل ما كان يكسر ظهرك شاهداً على رحمته. يجعل الثقل القديم مادة شكر. يجعلك تقول: كنت هناك، ثم وضع الله عني. كنت لا أرى باباً، ثم

فتح. كنت أحمل ما لا أطيق، ثم لطف. كنت أظن أن ظهري لن يستقيم، فإذا بي أمشي من جديد.

وهكذا تتحول الآية من خبر عن نعمة خاصة إلى قانون في الرجاء: ليس كل ما أنقض ظهرك سيبقى عليه. وليس كل ثقل قديم قدرًا أبدًا. وليس كل حمل خفي بعيدًا عن موضع الرحمة.

لكن ينبغي أن ننتبه: وضع الوزر لا يعني أن الإنسان لا يعمل، ولا يستغفر، ولا يتوب، ولا ينهض. بل إن السورة نفسها تختتم بالنصب والرغبة. فالتخفيف الرباني لا يلد كسلًا، بل يلد شكرًا عاملاً. من وضع الله عنه حملًا، استحيا أن يصنع من خفته نومًا طويلًا. ومن ذاق معنى التخفيف، عرف أن حياته الثانية ينبغي أن تكون أصدق من الأولى.

لذلك يأتي بعد كل هذه المنن: {فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ}

أي إن وضع الوزر ليس نهاية الطريق، بل بداية قدرة جديدة عليه.

وهذا هو الفارق بين من يفهم النعمة فهمًا طفوليًا، ومن يفهمها فهمًا رساليًا. الأول إذا خف عنه الحمل قال: الآن أستريح من الله. والثاني يقول: الآن أقدر أن أسير إلى الله. الأول يجعل التخفيف فرصة للغياب، والثاني يجعله فرصة للحضور. الأول يفرح بزوال الألم فقط، والثاني يفرح بأن زواله أعاده إلى العبودية بقلب أخف.

وسورة الشرح تريد النوع الثاني.

تريد قلبًا إذا شُرح لم يتكبر.

وإذا خُفف عنه لم يتفالت.

وإذا رُفع ذكره لم يغتر.

وإذا رأى اليسر لم ينس العسر.

وإذا فرغ لم يفرغ للفراغ.

وإذا رغب لم تتوزع رغبته في الطرقات.

إنها سورة تصنع إنسانًا متوازنًا على حافة النعم. والنعم لها حواف خطيرة؛ فالسعة قد تولد غفلة، والتخفيف قد يولد رخاوة، والرفع قد يولد عجبًا، واليسر قد يولد نسيانًا. لذلك قادت السورة كل نعمة إلى تكليف، وكل تكليف إلى الله.

وهذا هو جوهر البناء القرآني: لا توجد نعمة تقف عند نفسها. كل نعمة ينبغي أن تصير طريقًا إلى ربها.

فالشرح ليس للراحة فقط.

والوضع ليس للخفة فقط.

والرفع ليس للمكانة فقط.

واليسر ليس للسرور فقط.

والفراغ ليس للتعطّل.

والرغبة لا تكون إلا إلى الله.

بهذا المعنى تصبح الآية: {وَوَضَعْنَا عَنْكَ وِزْرَكَ} آية تحرير. تحرير الظهر من ثقل لا يليق أن يظل حاكمًا. تحرير النفس من عبودية الماضي. تحرير القلب من أن يظن أن ما أثقله أقوى من رحمة الله.

وما أعظم أن يعيش الإنسان وفي قلبه هذا اليقين:

أن لله وضعًا بعد حمل.

وتخفيفًا بعد ثقل.

وفتحًا بعد انقباض.

ويسرًا مع عسر.

ورفعًا بعد خفاء.

ونداءً بعد فراغ: قم، فانصب، وارغب إلى ربك.

هكذا لا يعود الثقل نهاية الحكاية.

يصير فصلًا في كتاب التربية.

فصلًا مؤلمًا، نعم.

لكنه ليس الأخير.

الفصل الخامس

{الَّذِي أَنْقَضَ ظَهْرَكَ}: حِينَ يَصْبِحُ الْحَمْلُ مَسْمُوعًا فِي الْعِظَامِ

في قوله تعالى: {الَّذِي أَنْقَضَ ظَهْرَكَ} انتقال من ذكر الوزر إلى تصوير أثره. فالآية لا تكتفي بأن تقول إن هناك حملاً، بل تكشف مقدار ذلك الحمل حتى كأنه بلغ موضع العظم، وحتى صار للثقل صوت خفي، لا يسمعه الناس، ولكن يعرفه صاحبه، ويعلمه ربه.

والنقض في الظهر صورة عجيبة. إنها لا تصف ألماً عابراً، ولا تعباً سطحياً، بل ثقلاً يضغط على البنية الحاملة في الإنسان. فالظهر هو موضع الحمل، فإذا أنقض، فمعنى ذلك أن الحمل لم يعد مجرد خاطر في النفس، ولا هم يمر على القلب، بل صار ثقلاً وجودياً يرافق الحركة، ويكاد يغيّر هيئة السائر.

وهنا تظهر رحمة التعبير القرآني.

فالقرآن لا يمر على آلام الإنسان الخفية كأنها أوهام. لا يقول له: أنت تبالغ. ولا يقول له: كان ينبغي ألا تشعر. ولا يطالبه أن يمحو بشريته ليكون مؤمناً. بل يصف الثقل بوصفه الصادق: {أَنْقَضَ ظَهْرَكَ}.

وهذه وحدها تربية كبيرة؛ لأن بعض الخطاب الديني حين يضعف فقهه بالنفس البشرية يتحول إلى قسوة متدنية. يطالب الناس أن يصبروا بلا ألم، وأن يثبتوا بلا ارتجاف، وأن يحملوا بلا انحناء، وأن يواصلوا بلا حاجة إلى

شرح صدر أو وضع وزر. أما القرآن فيعلمنا أن الإيمان لا يلغي حقيقة الحمل، ولكنه يضع الحمل داخل أفق الرحمة.

فالرسول ﷺ، وهو أكرم الخلق وأثبتهم وأكملهم عبودية، يخاطبه ربه بذكر ثقل أنقض ظهره. فما بالناس بمن دونه؟ وما بالناس بقلوب أصابها من ضعفها، ومن قلة علمها، ومن كثرة ابتلائها، ومن فوضى زمانها، ما يجعلها تحتاج إلى أن تسمع هذه السورة لا كتurf بل كدواء؟

إن في الآية إذن إدنًا كريمًا بالاعتراف بالثقل، لا للاعتراض، بل للعبودية. فالعبد لا يحتاج أن يكذب على نفسه أمام ربه. يستطيع أن يقول: يا رب، لقد ثقل الأمر عليّ. يستطيع أن يقول: يا رب، ضاق صدري. يستطيع أن يقول: يا رب، لا طاقة لي إلا بما آتيتني. وهذه ليست قلة إيمان إذا خرجت من مقام الافتقار، بل هي من صميم الإيمان؛ لأن العبد حين يعترف بعجزه بين يدي الله لا يعبد ضعفه، بل يرد ضعفه إلى القوي العزيز.

والفرق عظيم بين من يشكو لينقض معنى العبودية، ومن يشكو ليحتمي بها. الأول يجعل الألم حجة على الله.

والثاني يجعل الألم سببًا للرجوع إلى الله.

وفي سورة الشرح لا يأتي ذكر الثقل منفردًا، بل يأتي مسبوقًا بالفعل الرباني: {وَوَضَعْنَا عَنْكَ وِزْرَكَ}. وهذا الترتيب يحفظ القلب من الغرق في وصف الوجع؛ فالقرآن لا يفتح جرحًا ليتركه مفتوحًا، بل يذكر الجرح في حضرة البلسم، ويذكر الظهر المنقض بعد أن يعلن أن الله وضع عنه ما أثقله.

وهذه طريقة قرآنية في بناء الوعي: لا تنكر العسر، ولكن لا تجعله وحده. لا تنكر الثقل، ولكن لا تنس من يضعه. لا تنكر انحناء الظهر، ولكن لا تترك الظهر بلا رب.

كثير من الناس يملكون ذاكرة ألم قوية، لكنهم لا يملكون ذاكرة نجاة. يتذكرون ما أثقلهم، ولا يتذكرون ما وضعه الله عنهم. يحفظون تفاصيل الجرح، وينسون لحظة اللطف. يعرفون أين انكسروا، ولا يسألون: كيف بقوا؟ ومن الذي أبقاهم؟ ومن الذي جعلهم بعد ذلك يمشون، ولو ببطء؟

سورة الشرح تعيد ترتيب الذاكرة.

لا تقل فقط: أنقض ظهري.

قل: وضعه الله عني.

لا تقل فقط: كان العسر شديداً.

قل: كان معه يسر.

لا تقل فقط: تعبت.

قل: ثم دعاني ربي أن أنصب من جديد.

لا تقل فقط: رغبت في الفرج.

قل: وإلى ربي ينبغي أن تكون الرغبة.

وهكذا تتحول الذاكرة من مخزن للانكسار إلى محراب للشكر.

وقد يكون من أعمق معاني الآية أنها تكشف أن حمل الرسالة لا يمر على الجسد والنفس مروراً خفيفاً. ليس الطريق إلى الله رحلة حاملة من الخواطر اللطيفة، بل فيه أثقال حقيقية. ومن أخطر ما يصيب أصحاب المعاني أن يظنوا

أن صدق الطريق يلزم منه خفة الطريق. فإذا وجدوا الثقل اضطربوا، كأنهم فوجئوا بأن الحق مكلف، وأن النور ثقیل، وأن الكلمة الصادقة لها ثمن.

لكن القرآن حسم هذا من قبل: القول ثقیل، والرسالة عظيمة، والناس ليسوا جميعاً مستعدين للحق، والباطل لا يتنازل عن نفوذه بلا مقاومة، والنفس لا تخرج من شهواتها بلا مجاهدة، والمجتمع لا يترك عاداته الباطلة لمجرد أن كلمة صادقة قيلت فيه.

لذلك لا ينبغي لصاحب الرسالة أن يجعل ثقل الطريق دليلاً على خطأ الطريق.

قد يكون الثقل هو توقيع الطريق الصحيح.

فالطرق الفارغة من المعنى خفيفة غالباً؛ لأنها لا تطالب الإنسان إلا بما يوافق هواه. أما الطرق التي تنقل الإنسان من نفسه إلى ربه، ومن عاداته إلى تكليفه، ومن خوفه إلى صدقه، فهي ثقیلة؛ لأنها تهدم ممالك صغيرة داخل النفس، وتبني بدلاً عنها عبودية أعلى.

ولهذا كان الظهر في السورة موضعاً للتربية. فالإنسان لا يُربى بقلبه وحده، بل بكل كيانه. وهناك معانٍ لا يفهمها العقل إلا بعد أن يحملها الظهر. وهناك حقائق لا تصير ناضجة في النفس حتى يدفع الإنسان من راحته ثمناً لها.

ليس كل فهم يولد من القراءة.

بعض الفهم يولد من الحمل.

حين يحمل الإنسان، يعرف مقدار الكلمة. يعرف أن الدعوة ليست حماسة عابرة. يعرف أن الصبر ليس لفظاً ناعماً. يعرف أن الثبات ليس شعاراً. يعرف أن الناس حين يتعبون لا يحتاجون إلى وعظ سريع بقدر ما يحتاجون إلى يد تدلهم على الله دون أن تحتقر آلامهم.

ومن لم يعرف معنى الظهر المنقض قد يكون قاسياً على المنقضين. قد يوزع عليهم الأحكام من مسافة آمنة، ويظن أن كل متعب ضعيف، وأن كل منحٍ متخاذل، وأن كل من اشتكى ناقص اليقين. أما القرآن فيضع أمامنا خطاباً آخر: يذكر الثقل، ويذكر الوضع، ويجعل الرحمة أصلاً في فهم الإنسان.

وهذا لا يعني تبرير السقوط ولا تمجيد الضعف. بل يعني إنصاف الطريق. فهناك فرق بين من انحنى ليترك الحق، ومن انحنى لأنه يحمله. فرق بين من كسرتة الشهوة، ومن أرهقه الصبر. فرق بين من تعب من الله، ومن تعب إلى الله.

سورة الشرح لا تربي رخاوة. لكنها لا تربي قسوة أيضاً.

إنها تربي قوة رحيمة.

قوة تعرف أن الحمل ثقل.

ورحمة تعرف أن الله يضع الأوزار.

وفي قوله: {ظَهَرَكَ} خصوصية أخرى. فالظهر ليس موضع النظر الأول عند الناس. الناس يرون الوجه غالباً: ابتسامة الإنسان، كلمته، حضوره، صورته، نجاحه، ثباته الظاهر. أما الظهر فهو الموضع الذي يحمل ولا يُعرض. وهذا يفتح معنى دقيقاً: ليست كل أثقال الصالحين مرئية. قد ترى

وجه الإنسان مضيئاً، ولا ترى ظهره المنقض. قد ترى إنتاجه، ولا ترى كلفته. قد ترى كلمته، ولا ترى الليالي التي خرجت منها. قد ترى ذكره مرفوعاً، ولا ترى الوزر الذي وضعه الله عنه قبل الرفع.

ولهذا لا يجوز أن نحكم على الناس من واجهاتهم وحدها. فخلف كل وجه تاريخ من الحمل. وخلف كل كلمة صادقة ظهر دفع ثمنها. وخلف كل رقي حقيقي أثقال خفية لا يراها المتفرجون.

ومن هنا كذلك ينبغي لصاحب العمل الصالح ألا يغتر برؤية الناس لوجهه، وألا ينتظر منهم أن يفهموا ظهره. يكفيه أن الله يعلم. فالناس قد يمدحونك على ثمره، وهم لا يعرفون جذورها. وقد يلومونك على تأخر، وهم لا يعرفون ما تحمله. وقد يطلبون منك مزيداً، وهم لا يعرفون أن ظهرك بلغ حد النقض. فإن جعلت ميزانك بأيديهم، هلك بين مدح لا يفهمك، وطلب لا يرحمك، وعتب لا يرى حقيقتك.

أما إذا عرفت أن الله هو الذي شرح، ووضع، ورفع، وأن إليه الرغبة، استراح قلبك من عبودية تفسير نفسك للناس.

لا يلزم أن يعرفوا كل شيء.

لا يلزم أن يروا الظهر.

يكفي أن الله يعلم موضع الحمل.

وهذا المعنى لا يصنع عزلة باردة عن الخلق، لكنه يصنع حرية داخلية. يجعلك تعمل دون أن تبتزك عيون الناس، وتصبر دون أن تحتاج دائماً إلى

شاهد بشري على صبرك، وتتألم دون أن تحول أملك إلى عرض مستمر
تطلب به اعترافاً من الجميع.

فالعبد الناضج لا يخفي ألمه كبرياءً، ولا يعرضه استجداءً. يضعه حيث ينبغي
أن يوضع: بين يدي الله أولاً، ثم عند من يحسن الفهم إن احتاج.

وسورة الشرح، بهذا التركيب، تفتح للإنسان باباً عجبياً في التعامل مع أثقاله:
أن يسميها دون أن يستسلم لها. أن يعرف أثرها دون أن يجعلها هويته. أن
يتذكر أن ظهره انقض، لكن لا ينسى أن الله وضع عنه.

وهذا أمر حاسم؛ لأن بعض الناس بعد البلاء يتحولون إلى بلائهم. لا يعودون
يرون أنفسهم إلا من خلال ما أثقلهم. تصير الجراح أسماءهم الجديدة.
يتحدثون من داخل الوجع حتى بعد أن فتح الله لهم أبواباً كثيرة. وهذا من بقايا
الوزر إذا لم يوضع كاملاً في الوعي، أو إذا وضعه الله فعلاً، لكن العبد ظل
يحمل صورته في الذاكرة.

فما معنى أن يضع الله عنك حملاً، ثم تصر أنت أن تحمله في خيالك؟

قد يخرج الإنسان من السجن، ويبقى السجن في صدره.
وقد ينجو من مرحلة، وتبقى المرحلة حاكمة على لغته.
وقد يضع الله عنه وزره، ثم يظل يفتش عنه ليحمله مرة أخرى، لأنه اعتاد
الانحناء.

هنا تأتي السورة لتعيد تحرير الظهر والذاكرة معًا. تقول لك: إذا وضع الله، فلا تقدس حملك القديم. إذا خفف الله، فلا تجعل الانحناء هوية. إذا فتح لك، فلا تعبد صورة الباب المغلق. إذا أنجاك، فلا تبقَ أسير لحظة الغرق.

اشكر، وتعلم، وامض.

ليس المطلوب أن تنسى كل شيء؛ فبعض الذاكرة جزء من الحكمة. لكن المطلوب ألا تبقى الذاكرة سلطانًا على الإيمان. أن تتحول من قيد إلى درس، ومن ندبة إلى بصيرة، ومن وجع خام إلى رحمة بالمنقذين.

وهذا من أجمل ثمار البلاء إذا هذبه الوحي: أنه يجعل الإنسان أرحم. فمن عرف معنى الظهر المنقض لا يستهين بأثقال الناس. ومن ذاق وضع الله عنه لا يقنط أحدًا من رحمة الله. ومن رأى اليسر مع عسره صار قادرًا أن يدل غيره على اليسر دون أن يسخر من عسره.

هكذا لا تخرج من البلاء مجرد ناجٍ، بل تخرج شاهدًا على اللطف.

ولعل هذا هو السر في أن السورة لا تذكر الوضع وحده، بل تذكر ما كان قبله من النقض؛ لأن تمام الشكر لا يكون إلا بتذكر مقدار الثقل. لو لم نعرف أن الوزر أنقض الظهر، لما عرفنا عظمة وضعه. وكلما كان العبد أصدق في تذكر ما نجاه الله منه، كان أعمق في الحمد، وأبعد عن العجب، وأرحم بالناس.

فالذي ينسى ثقل الأمس قد يتكبر بخفة اليوم.

والذي ينسى انحناءه القديم قد يسخر من المنحنيين.

والذي ينسى أنه لم ينجُ بنفسه قد يظن أنه صنع نفسه وحده.

أما سورة الشرح فتحفظ القلب من هذا الغرور. تقول له: كنت مثقلًا، فوضع الله. كنت ضيقًا، فشرح الله. كنت في موضع خفاء، فرفع الله. كنت في عسر، فجعل الله معه يسرًا. فلا تجعل النعمة سببًا لنسيان المنعم.

إنها سورة تربي الأدب مع الماضي. لا تجعله معبودًا، ولا تمحوه حتى يضيع الشكر. تبقي منه ما يكفي للحمد، وتنزع منه ما يمنع السير.

وهذه موازنة دقيقة.

فمن الناس من ينسى ماضيه تمامًا إذا ارتفع، فيقسو.

ومنهم من يبقى في ماضيه تمامًا إذا تألم، فيتعطل.

والقرآن يصنع شيئًا ثالثًا: ذاكرة شاكرة سائرة.

تتذكر لتشكر.

وتشكر لتعمل.

وتعمل لترغب إلى ربك.

ولذلك لا تنتهي السورة عند وضع الوزر. لو انتهت هناك لربما فهم الإنسان

أن الغاية هي الخفة. لكنها تمضي إلى رفع الذكر، ثم إلى قانون العسر واليسر،

ثم إلى النصب والرغبة. كأنها تقول: ما وضع عنك إلا لتستقيم. وما خُفف

عنك إلا لتواصل. وما نُجِّيت إلا لتقوم بحق النجاة.

إن النجاة التي لا تتحول إلى عبودية قد تتقلب إلى غفلة.

والخفة التي لا تتحول إلى عمل قد تصير بطالة روحية.

والصدر المشروح إذا لم يمتلئ بالحق امتلأ بالتوافه.

ومن هنا يصبح ذكر الظهر المنقض ضرورة تربوية. لأنه يضع الإنسان أمام سؤال: ماذا ستفعل بعد أن خفف الله عنك؟ هل ستعيش كأنك لم تُرحم؟ هل ستعود إلى الفراغ؟ هل ستجعل نعمة الوضع مجرد فرصة للانشغال بالدنيا؟ أم ستفهم أن الله حين وضع عنك حملاً، فقد فتح لك باب حمل آخر أكرم: حمل الشكر، والعمل، والرغبة؟

إن أوزاراً كثيرة إذا وضعها الله عن العبد، لم يبقَ له عذر في القعود. وربما كان أخطر ما بعد الفرج أن ينسى الإنسان لماذا فرج عنه. فالفرج ليس استراحة من العبودية، بل عودة إليها بصورة أنقى.

ولهذا يأتي الأمر: {فَانْصَبْ}.

كأن الظهر الذي كان منقضاً بالوزر، سيُدعى بعد الوضع إلى نصب جديد. لكنه نصب مختلف. الأول ثقل يكسر، والثاني جهد يرفع. الأول حمل يُوضع عنك، والثاني عبادة تنهض بها. الأول يضغط على الظهر حتى ينقض، والثاني يجعل الظهر منتصباً في طريق الله.

ليس كل ثقل مذموماً.

هناك ثقل يميت.

وهناك ثقل يربي.

هناك حمل يسحقك لأنه يقطعك عن الله.

وهناك حمل يشرفك لأنه يقودك إلى الله.

وسورة الشرح تنقلك من الثقل الأول إلى الثاني. تضع عنك ما أنقض ظهرك، ثم تقول لك: إذا فرغت فانصب. أي لا تهرب من كل حمل، بل اهرب من الحمل الذي يقطعك عن الله إلى الحمل الذي يوصلك إليه.

هذه من أدق معاني النضج: أن لا يطلب الإنسان خلواً مطلقاً من الكلفة، بل يطلب كلفة لها وجهة. فالحياة بلا كلفة موت ناعم، والكلفة بلا وجهة عذاب، أما الكلفة إلى الله فهي عبادة.

وبذلك يكون الظهر في السورة قد انتقل من موضع الانقضا إلى موضع القيام. وهذا من جمال القرآن: لا يكتفي برفع الثقل، بل يعيد تأهيل موضع الحمل ليحمل ما يليق به.

فالظهر الذي أنقض بالوزر لا ينبغي أن يبقى منحنيًا بعد الوضع. والصدر الذي شُرح لا ينبغي أن يبقى فارغًا بعد السعة. والذكر الذي رُفع لا ينبغي أن يصير غرورًا بعد الرفع. واليسر الذي جاء مع العسر لا ينبغي أن يصير نسيانًا بعد الشدة.

كل نعمة في السورة تتحول إلى أدب.

وهنا يتجلى معنى عظيم: أن الله لا يداوي عبده ليعود كما كان فقط، بل ليرتقي. ليس الشفاء القرآني رجوعًا إلى نقطة الصفر دائمًا؛ أحيانًا يكون انتقالًا إلى مقام أعلى. لقد كان الظهر منقضًا، فوضع الله الحمل، لكن النهاية ليست مجرد ظهر بلا حمل، بل عبد ينصب لربه، ويرغب إليه.

فالمداواة هنا ليست علاجًا نفسيًا منفصلاً عن الغاية، بل تربية إيمانية تقود إلى عبودية أصفى.

وهذا ما نحتاجه حين نقرأ سورة الشرح لأنفسنا. لا نقرأها لنبحث عن طمأنينة منفصلة عن التكليف، بل لنفهم كيف يصنع الله من الطمأنينة طاقة للتكليف. لا نقرأها لنهرب من الطريق، بل لنعود إليه أخف وأبصر. لا نقرأها لنقول: لقد تعبنا، وكفى. بل لنقول: لقد تعبنا، فعلمنا الله، ووضع عنا، ثم نادانا أن نصب من جديد.

إن أعظم خيانة لمعنى السورة أن نجعلها مخدراً.
إنها ليست مخدراً.
إنها بعث داخلي.

تدخل إلى الظهر المنقض، لا لتقول له: نم طويلاً، بل لتقول له: سيبضع الله عنك ما أثقلت، ثم ستقوم لما خلقت له.

وهكذا يلتقي أول السورة بآخرها.

الصدر يُشرح لكي لا يختنق عند النصب.
والوزر يُوضع لكي لا يعطل الحركة.
والذكر يُرفع لكي لا يهزم التكذيب النفس.
واليسر يُكشف لكي لا يستبد العسر بالرؤية.
والفراغ يُلغى بوصفه عطالة.
والرغبة تُرد إلى الله بوصفه المقصد.

هذا بناء كامل لا زينة لفظية.

ولذلك فإن قوله: {الَّذِي أَنْقَضَ ظَهْرَكَ} ليس مجرد وصف لما مضى، بل مفتاح لفهم ما سيأتي. فمن لم يفهم ثقل الظهر، لن يفهم معنى الوضع. ومن لم يفهم معنى الوضع، لن يفهم نعمة الرفع. ومن لم يفهم هذه المنن، سيظن أن الأمر بالنصب في آخر السورة قسوة، بينما هو في الحقيقة ثمرة رحمة. فالله لا يقول: فانصب، لعبد مهمل لم يُعَن، بل يقولها بعد أن شرح، ووضع، ورفع، وبَيَّن أن مع العسر يسراً.

أي إن التكليف يأتي محفوفاً بالمنة.

وهذا من أعظم ما يطمئن القلب العامل: أن الله لا يطلب منك السير ثم يتركك بلا مدد. هو الذي يشرح، ويضع، ويرفع، ويجعل اليسر مع العسر، ثم يأمرك أن تقوم. فقيامك ليس اعتماداً على نفسك، بل استجابة لمن أمدك قبل أن يأمرك.

ومن هنا تسقط دعوى العجز المطلق، كما تسقط دعوى القوة الذاتية المطلقة.

لست وحدك حتى تيأس.

ولست من نفسك حتى تغتر.

أنت عبد مشروح الصدر بما شرح الله، مخفف الظهر بما وضع الله، مرفوع الذكر بما رفع الله، مدعو إلى النصب بما أمر الله، ومشدود الرغبة إلى الله.

هذه هي كرامة العبودية في السورة: أن كل شيء يبدأ من الله وينتهي إليه.

ولذلك حين يسمع المؤمن قوله: {الَّذِي أَنْقَضَ ظَهْرَكَ} لا يسمعه كصورة موجعة فقط، بل كجزء من شهادة النجاة. نعم، كان هناك ما أنقض الظهر. لكن الأجل أن الآية لم تبدأ به، بل بدأت بوضعه. وهذا التقديم نفسه رحمة؛ لأن القرآن يرفض أن يجعل الثقل بطل القصة. البطل هنا هو فعل الله.

الثقل مذكور.

لكن الله أسبق منه في الذكر.

الوزر موجود.

لكن الوضع هو الخبر الأكبر.

الظهر تألم.

لكن الرحمة وصلت إليه.

وهكذا يجب أن تُقرأ الحياة كلها.

لا تجعل البلاء بطل سيرتك.

اجعل لطف الله هو البطل.

لا تجعل ما كسرك عنوانك الأخير.

اجعل ما أقامك شاهداً للأصدق.

لا تقل: لقد أنقض ظهري، وتسكت.

قل: وضعه الله عني، ثم دعاني إلى ما هو أعلى.

ومن عاش بهذا الفهم لم يعد أسيراً للثقل القديم، ولا مغروراً بالخفة الجديدة. يعيش بين ذاكرة الرحمة ومسؤولية العمل. يذكر أنه حُمِلَ، ثم خُفِفَ عنه، ثم كُفِّلَ أن ينهض. وهذا هو الإنسان الذي تخرجه سورة الشرح: إنسان لا ينكر

وجعه، لكنه لا يسكن فيه؛ لا يعبد راحته، لكنه لا يحتقر حاجته إلى الرحمة؛ لا يخاف النصب، لأنه عرف أن الله يشرح ويضع ويرفع.

وبذلك تتحول الآية القصيرة إلى مرآة طويلة يرى فيها كل صاحب حمل نفسه.

يرى ظهره حين انحنى.

ويرى يد الرحمة حين وضعت.

ويرى الطريق حين عاد مفتوحًا.

ويرى أن الله لم يذكر الحمل ليحبسه فيه، بل ليحرره منه.

وهذا وحده كافٍ لأن يقول القلب بعد كل ثقل مضى:

الحمد لله الذي علم ما حملنا.

والحمد لله الذي وضع ما لم نكن نطيق.

والحمد لله الذي لم يجعل انقضاض الظهر خاتمة الطريق.

والحمد لله الذي إذا شرح الصدر، ووضع الوزر، رفع الذكر، ثم دل العبد

على اليسر، ثم ناداه إلى العمل، ثم رد رغبته إليه.

الفصل السادس

{وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ}: الرفعة التي لا يصنعها التصفيق

بعد شرح الصدر ووضع الوزر يأتي الرفع: {وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ}

وهذه الآية من أعظم آيات التكريم في القرآن. قليلة الألفاظ، ولكنها تحمل معنى لا يحيط به بشر. فأي رفع أعظم من أن يقترن ذكر النبي ﷺ بالشهادة، والأذان، والإقامة، والصلاة، والخطبة، والدعاء، والاتباع، والمحبة، والصلاة عليه في مشارق الأرض ومغاربها؟ وأي ذكر بقي في الدنيا حيًّا كما بقي ذكره ﷺ، لا بوصفه اسمًا تاريخيًا جامدًا، بل بوصفه إمام الهداية، وخاتم النبيين، والعبد الرسول الذي جعله الله رحمة للعالمين؟

لكن الآية لا تقول: وارتفع ذكرك.

بل تقول: {وَرَفَعْنَا}.

وهذا هو الفارق كله.

الذكر الحقيقي لا يرتفع بذاته، ولا تصنعه الأصوات وحدها، ولا يحفظه الإعلام، ولا تضمنه قوة الدولة، ولا كثرة الأتباع في لحظة من الزمن. الذكر الذي يرفعه الله شيء آخر. قد يبدأ في الخفاء، ويواجه التكذيب، ويحاصره الأذى، ويُرْمى صاحبه بما ليس فيه، ثم يمضي الرفع الإلهي في طريقه، هادئًا، غالبًا، لا يستطيع الباطل أن يلغيه.

إن الناس يستطيعون أن يصنعوا شهرة، لكنهم لا يستطيعون أن يصنعوا ذكرًا مباركًا. الشهرة ضوء سريع قد يحرق صاحبه، أما الذكر المرفوع من الله فبقاء في الحق. الشهرة تحتاج إلى ضجيج، أما الذكر الرباني فقد يبدأ في غار، أو في بيت صغير، أو في دعوة محاصرة، ثم يجعله الله أوسع من الجغرافيا وأطول من أعمار المكذبين.

ولهذا جاءت الآية بعد وضع الوزر. لأن الرفع الرباني ليس زينة خارجية، بل ثمرة في سياق تربية كاملة. شرح الصدر أولاً، ووضع الوزر ثانيًا، ثم رفع الذكر. كأن السورة تعلمنا أن الذكر إذا سبق تأهيل الداخل صار فتنه، وإذا جاء بعد الشرح والوضع صار نعمة.

كم من إنسان تمنى أن يُذكر، ولم يسأل: هل اتسع صدري لما يترتب على الذكر؟

كم من إنسان طلب الظهور، ولم يسأل: هل وُضع عن ظهري ما سيجعل الظهور خطرًا علي؟

كم من إنسان ظن أن الرفع غاية، ولم يفهم أنه إذا لم يكن من الله وإلى الله، تحول إلى قيد جديد.

الآية تقطع هذا الوهم من جذره.

{وَرَفَعْنَا}.

أي إن الرفع من الله.

وإذا كان من الله، فهو ليس تسلقًا بشريًا، ولا خطفًا للأضواء، ولا تزيينًا

للصورة، بل تقدير رباني يقع حيث شاء الله، وبالقدر الذي شاء الله، وللحكمة التي شاء الله.

أما قوله: {لَكَ} ففيه لطف آخر. لم يقل: ورفعنا ذكرك فقط، بل قال: {لَكَ ذِكْرُكَ}. كأن الرفع جاء كرامة لك، ونصرة لك، وإظهارًا لما أودع الله في رسالتك من الحق. فالذكر هنا ليس مجرد انتشار اسم، بل شهادة الله لعبده ورسوله ﷺ، وحفظ لمقامه، وإبطال لمحاولة المكذبين أن يدفنوا نوره.

لقد أراد خصوم الدعوة أن يجعلوا ذكره محدودًا، محاصرًا، مشوهًا، مربوطًا باتهاماتهم. قالوا شاعر، وقالوا كاهن، وقالوا مجنون، وقالوا مفتري. وهذه الكلمات لم تكن مجرد شتائم، بل كانت محاولة لصناعة ذاكرة مضادة؛ أرادوا أن يضعوا بين الناس وبين النبي ﷺ حجابًا من الأسماء المزيفة.

لكن الله قال: {وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ}.

فما بقيت أسماؤهم عليه، وبقي اسمه الذي رفعه الله. ذهبت دعايتهم، وبقيت الشهادة. ضاع ضجيجهم، وبقي الأذان. انقرضت مجالس السخرية، وبقيت الصلاة عليه. ماتت الروايات الظالمة، وبقي القرآن يتلى، والسنة تهدي، والقلوب المؤمنة تحبه ﷺ حبًا لا يلتبس بعبادة، فهو عبد الله ورسوله، أكمل الخلق عبودية، وأعظمهم مقامًا، ولا يخرج حبناله عن توحيد الله، بل هو من تمام الإيمان بالله واتباع أمره.

وهنا يظهر الفرق بين الرفع الرباني والرفع البشري.

الرفع البشري قابل للانقلاب.

يرفعك الناس اليوم، ثم يضعونك غدًا.

يمدحونك بغير علم، ثم يذمونك بغير عدل.

يصنعون لك صورة، ثم يملّونها.

يقترّبون من اسمك ما دام نافعًا لهم، ثم يتركونه إذا لم يعد يخدم رغباتهم.

أما إذا رفع الله ذكر عبد، فلن يضره أن يمر في الطريق غبار طويل. قد يتأخر الاعتراف عند الناس، لكن الرفع آتٍ في وقته. وقد تُحجب الحقيقة مدة، لكنها لا تموت. وقد يعيش الصادق غريبًا في زمنه، ثم يجعل الله له في القلوب حياة بعد حين.

وهذا المعنى يربي في النفس صبرًا عزيزًا. فلا يستعجل صاحب الحق أن يبرئه الناس في اللحظة التي يريدّها. ولا يجعل قيمته معلقة بتقلب الرأي العام. ولا يقيس صدقه بسرعة انتشاره. فالذكر المرفوع ليس دائمًا عاجلاً، وليس دائمًا بالصورة التي يتخيلها الإنسان.

ربما رفع الله ذكرك في قلب واحد صادق انتفع بك.

وربما رفعه بعد موتك.

وربما رفعه في موضع لا تعلمه.

وربما حجب اسمك وأبقى أثرك.

وربما جعلك مجهولًا عند الناس، معروفًا في ملاء أعلى.

والميزان ليس ما تراه العين، بل ما يريده الله.

لكن في مقام النبي ﷺ، الرفع أظهر وأكمل وأعظم. فقد رفع الله ذكره رفعًا ظاهرًا باهرًا، لا يشبه رفع أحد من الخلق. فلا يذكر الله في شهادة الإسلام إلا ويذكر معه رسول الله ﷺ عبدًا ورسولًا. ولا يدخل الناس في الدين إلا بالشهادة له بالرسالة بعد توحيد الله. ولا تقام صلاة إلا وحضور ذكره فيها تشهدًا وصلاةً وسلامًا. وهذا رفع لا تصنعه دولة، ولا يحميه سلطان أرضي، بل حفظه الله في بنية الدين نفسه.

وهنا ينبغي أن نقف عند سر عميق: رفع الذكر النبوي ليس تعظيمًا منفصلًا عن التوحيد، بل داخل في التوحيد؛ لأن تعظيم الرسول ﷺ يكون باتباعه وتصديقه ومحبته والصلاة عليه، لا بإخراجه عن مقام العبودية. لقد رفعه الله لأنه عبده ورسوله، لا لأنه يشارك الربوبية أو الألوهية، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً. ومقامه الأعلى هو تمام عبوديته لله.

وهذه الحقيقة تحفظ المحبة من الغلو، وتحفظ الاتباع من الجفاء. فلا نرفعه فوق ما رفعه الله، ولا ننقصه مما رفعه الله. لا نجعل المحبة ذوباً غير منضبط، ولا نجعل التوحيد بروداً في حقه. بل نحبه كما أمر الله، ونتبعه كما أمر الله، ونصلي عليه كما علمنا، ونشهد أنه بلغ الرسالة، وأدى الأمانة، ونصح الأمة، وجاهد في الله حق جهاده.

إن قوله: {وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ} لا يربي فينا حب النبي ﷺ وحده، بل يربي كذلك أدباً في فهم الرفع. فالرفع لا تكون دائماً بما يلمع. الرفع الحقيقية أن يضع الله لك قبولاً في مواضع الحق، وأن يجعل ذكرك مرتباً بمعنى صالح، وأن

لا يكون حضورك في الناس حضور غرور، بل حضور هداية أو نفع أو صدق.

ما قيمة ذكر واسع إذا كان خفيًا عند الله؟
وما قيمة شهرة ضخمة إذا كانت قائمة على باطل؟
وما قيمة أن يعرفك الناس ولا يعرفون منك إلا صورة مصنوعة؟
وما قيمة أن يرتفع اسمك وينخفض قلبك؟

سورة الشرح تجعل الرفع بعد الشرح والوضع، حتى لا ينفصل الخارج عن الداخل. فالذكر إذا ارتفع بلا صدر مشروح صار مصدر ضيق. وكلما زاد الحضور زاد الاختناق. أما إذا كان الصدر مشروحًا، صار الرفع مجال شكر لا مجال عجب.

إن الإنسان لا يُفْتَن بالخفاء فقط، بل يُفْتَن بالظهور أيضًا.
في الخفاء قد ييأس.
وفي الظهور قد يغتر.

وسورة الشرح تدأويهما معًا. تدأوي الخفاء بقوله: {وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ}،
وتدأوي الغرور بقوله: {وَرَفَعْنَا}؛ أي ليس الرفع منك، ولا بك وحدك، ولا
لجمالك الذاتي، بل هو فضل الله.

ومن فهم هذا لم يعد يطلب الذكر كمن يطلب غنيمة، بل يخافه ويؤديه إن
جاءه. فإن رفع الله ذكره في خير، قال: هذا فضل ربي، وهذه أمانة، وليست
شهادة مفتوحة للنفس. وإن حجب الله ذكره، قال: لعل الستر أصلح لي. وإن
ذكره الناس بسوء وهو على حق، قال: الرفع بيد الله، لا بالسنة الخلق.

وهذا المعنى مهم لأصحاب الأقلام والكلمات والمشاريع الفكرية والدعوية. فقد يكتب الإنسان كلمة حق، ثم ينتظر أن ينصفه الناس سريعًا. وقد يبذل عمره في معنى، ثم يرى من هو أخف منه معنى أوسع منه انتشارًا. وقد يشاهد الباطل يملك المنابر، والحق يمشي على أطرافه. وهنا تأتي الآية لتصحيح الوجهة: ليس شأنك أن تنتزع الرفع من أيدي الناس، بل أن تكون أهلاً لما يرفعه الله. اكتب لله، وصدق لله، واصبر لله، ودع الذكر لصاحب الذكر.

فقد يجعل الله لك ذكرًا لا يشبه ما رغبت فيه، لكنه أنفع لك.

وقد يصرف عنك شهرة كانت ستفسدك.

وقد يؤخر الاعتراف بك حتى ينضج قلبك.

وقد يرفع منك معنى، لا اسمًا.

وقد يجعل أثرك في القلوب أعمق من حضورك في الألسنة.

والناس عادة يطلبون رفع الاسم، أما الله فقد يرفع الأثر.

والأثر أصدق من الاسم.

إن الرفع في ميزان القرآن ليس أن يكثر من يرددون اسمك، بل أن يرتبط اسمك أو أثرك أو عملك بما يحبه الله. أن تكون كلمة في طريق هداية، أو سببًا في تثبيت قلب، أو مصباحًا صغيرًا في عتمة أحدهم، أو سترًا على ضعيف، أو معنى يبقى بعدك ولو نسي اسمك.

أما النبي ﷺ فجمع الله له كمال الرفع: الاسم والأثر، الذكر والاتباع، المحبة والطاعة، الدنيا والآخرة. وهذا من خصوصيته التي لا يلحقه فيها أحد. لكن

المؤمن يتعلم من الآية أصلاً عاماً: أن الرفع المبارك فضل، وأن مصدره الله، وأن طريقه ليس التزلف للخلق، بل الصدق مع الحق.

وهناك معنى آخر في الآية: أن الله يرفع ذكر عبده في مواجهة محاولات الوضع البشري. فكم حاول المكذبون أن يضعوا ذكر النبي ﷺ، فجاء الرفع من الله. وكم حاول الباطل في التاريخ أن يخفض أسماء الصادقين، فرفعها الله بعد حين. وكم حاولت ألسنة السوء أن تطمس معنى صالحاً، فإذا به يبقى وتذهب الألسنة.

لا تخف كثيراً على الحق من حملات التشويه إذا كان حقاً.
خف على نفسك أن لا تكون صادقاً معه.

فالحق لا يموت لأن خصومه شتموه. يموت في يد صاحبه إذا خانته، أو باعه، أو لوته بالكبر، أو جعله سلماً لنفسه. أما إذا بقي الحق حقاً، وبقي صاحبه عبداً، فإن الله يتولى ما شاء من رفعه، في الوقت الذي يشاء.

والرفع الرباني قد لا يمنع الابتلاء. وهذه نقطة مهمة. فقد رُفِعَ ذكر النبي ﷺ، ومع ذلك أُوذِيَ، وحُورِبَ، وأُخْرِجَ، وفقد أحبباً، ورُميت دعوته، وقاسى ما قاسى. فليس معنى الرفع أن تختفي الجراح. بل قد يجتمع الرفع والابتلاء؛ لأن الرفع ليس إجازة من الألم، بل شهادة للمعنى.

كثيرون يظنون أن من رفعه الله لن يتألم.
لكن سورة الشرح نفسها جمعت بين الظهر المنقض والذكر المرفوع.
وهذا وحده يكفي لهدم الوهم.

قد يكون ظهرك مثقلًا وذكرك مرفوعًا.
قد تكون محبوبًا عند الله ومبتلى في الأرض.
قد تكون في طريق صحيح ومع ذلك تواجه عسرًا.
قد يكون معك اليسر، لا بدلًا من العسر، بل معه.

لذلك لا تجعل البلاء دليل هوان، ولا تجعل الرفع دليل راحة. فالموازين في طريق الله أعمق من هذه القراءة العجلى. النبي ﷺ مرفوع الذكر أعظم الرفع، ومع ذلك عرف من العسر ما لا يعرفه طلاب الراحة. والعبد كلما اقترب من ميراث النبوة في الصدق والدعوة والصبر، ناله من معنى هذه السورة بقدر: شرح، ووضع، ورفع، وعسر، ويسر، ونصب، ورغبة.

والآية تربي كذلك على أن الذكر لا يرفع بالعنف الداخلي، ولا باللهات خلف الاعتراف. هناك أشخاص يطاردون الرفع حتى يسقطوا من الداخل. يحسبون كل صمت تجاههم ظلمًا، وكل تأخر في تقديرهم إهانة، وكل نجاح لغيرهم تهديدًا. هؤلاء لم يتعلموا معنى: {وَرَفَعْنَا}. لو تعلموه لاستراحوا من عبودية المقارنة.

فالذي يرفع هو الله.
والذي يخفض هو الله.
والذي يعطي القبول هو الله.
والذي يعلم متى يصلح لك الظهور ومتى يصلح لك الخفاء هو الله.

ليس مطلوبًا أن تدفن موهبتك، ولا أن تزهد في نفع الناس، ولا أن تترك البلاغ والبيان، ولكن المطلوب ألا تجعل الذكر معبودًا خفيًا. اعمل، واكتب،

وبلغ، واصبر، وجود، ثم لا تقف أمام باب الناس تستجدي منهم الرفع. من احتاجه عملك، سيبلغه الله به. ومن أراد الله أن ينفعه بك، فتح بينك وبينه طريقًا ولو بعد حين.

وهذا لا يلغي الأخذ بالأسباب. فالنبي ﷺ أخذ بالأسباب في الدعوة والبلاغ والهجرة وبناء الجماعة. لكن الفرق بين الأخذ بالأسباب وعبادة الأسباب أن الأول طاعة، والثاني قلق دائم. خذ بالأسباب كعبد، لا كمن يظن أن مصيره كله في يد خوارزميات الناس وأمزجتهم ومجالسهم.

في هذا العصر، صار الذكر سلعة. تقاس الأسماء بالأرقام، والحضور بالمشاهدات، والقيمة بسرعة الانتشار. ثم جاءت هذه الآية القديمة الجديدة لتقول: ليس كل انتشار رفعًا، وليس كل خفاء وضعًا. الرفع الحقيقي ما رفعه الله، ولو قلّ عدده في البداية. والوضع الحقيقي أن يسقط الإنسان من عين الحق ولو صعد في عيون الناس.

هذه الآية تحرر الكاتب من السوق، والداعية من الجمهور، والمصلح من التصفيق، والعالم من فتنة الجاه، والعابد من حب السمعة، والإنسان كله من أن يعرف نفسه بما يقوله الناس عنه.

إنها تقول له: لا تطلب أن تكون مذكورًا فقط، بل اطلب أن يكون ذكرك طيبًا عند الله.

لا تطلب أن يراك الناس، بل أن لا يحجبك ظهورك عن ربك.

لا تطلب رفعًا يملأ غرورك، بل رفعًا يزيديك خضوعًا.

لا تطلب اسمًا واسعًا وقلبًا ضيقًا.

اطلب صدرًا مشروحًا، وظاهرًا مخففًا، وذكرًا إن رُفِعَ فبالحق، وإن حُجِبَ فبالستر.

ومن عظمة الرفع النبوي أنه لم يكن رفع شخص مجرد، بل رفع منهج. فذكر النبي ﷺ لا ينفصل عن الرسالة التي جاء بها. كلما ذُكر حقًا، ذُكر الوحي، والعبودية، والتوحيد، والرحمة، والبلاغ، ومكارم الأخلاق، والجهاد بمعناه المشروع المنضبط، والصبر، والعدل. فالرفع هنا ليس تمجيد اسم بعيد عن المعنى، بل إبقاء للمعنى حيًا في الأمة.

وهذا درس لكل من يطلب أثرًا: لا تجعل اسمك أكبر من رسالتك. إذا كبر الاسم وصغرت الرسالة، كان ذلك سقوطًا في صورة رفع. أما إذا كبرت الرسالة، ولو توارى الاسم، كان ذلك رفعًا في صورة خفاء.

النبي ﷺ هو الكامل في هذا الباب؛ فقد كان اسمه مرفوعًا بأمر الله، ورسالته محفوظة، وعبوديته أصل مقامه. وكل من اتبعه بصدق أخذ من هذا الميزان: أن يكون المعنى قبل الذات، والحق قبل الصورة، والله قبل كل شيء.

ومما يزيد الآية جمالًا أنها جاءت بين وضع الوزر وذكر العسر واليسر. وهذا الموقع يجعل الرفع نفسه جزءًا من علاج العسر. فصاحب الحق إذا حارب بالتكذيب احتاج أن يعلم أن الله يتولى ذكره. ليس المطلوب أن يظل مشغولًا بسماعته حتى ينسى رسالته. هناك رب يرفع. وهناك وعد يكفي القلب من الهلع.

لكن هذا الوعد لا يعني أن يترك الإنسان تنقية عمله وخلقه. فالله لا يرفع الذكر المبارك مع فساد الداخل إلا استدراجًا أو فتنة. أما الرفع المحمود فهو الذي يوافقه صدق. ومن هنا نعود إلى بداية السورة: شرح الصدر. فكل رفع لا يسبقه شرح يعرض صاحبه للخطر. وكل ظهور لا يصحبه افتقار قد يصير حجابًا.

ولذلك كان أكمل الناس رفعًا أكملهم عبودية.
وكان أعلى الناس ذكرًا أخفضهم قلبًا لربه.
وكان سيد الخلق ﷺ يقول ما يدل على كمال افتقاره إلى الله، ويعيش عبدًا
رسولًا، لا ملكًا متجبرًا، ولا عظيمًا أفسدته العظمة.

وهذا معنى بالغ الجلال: أن الله رفع ذكر من لم يطلب لنفسه عظمة منفصلة
عن العبودية. فكلما كمل العبد في عبوديته، كان ما يرفعه الله به طاهرًا من
طغيان الذات.

أما نحن، فنحتاج أن نخاف من الرفع كما نخاف من الوضع. نخاف من الذكر
إذا كشف فينا حب النفس. نخاف من المدح إذا صار غذاء خفيًا للكبر. نخاف
من الأضواء إذا جعلتنا نرى الناس جمهورًا لا عبادًا لله. نخاف من أن يصير
العمل الصالح مرآة نعبد فيها صورتنا.

وهنا تأتي نهاية السورة علاجًا: {وَالْيَ رَبِّكَ فَارْغَبْ}.

كأنها تقول: إذا رُفِعَ ذكرك، فلا ترغب إلى ذكرك.
وإذا اتسع أثرك، فلا ترغب إلى أثرك.

وإذا أحبك الناس، فلا تجعل محبتهم قبالتك.

وإذا أكرمك الله بقبول، فرد القبول إليه.

فالذكر المرفوع لا ينجو صاحبه إلا بالرغبة إلى الله.

وهكذا لا تبقى الآية مديحاً مجرداً، بل تتحول إلى تربية كاملة في فقه الظهور.

تربية تقول: الرفع من الله، والذكر أمانة، والشهرة ليست معياراً، والقبول

فضل، والاتباع أعظم من الإعجاب، ومحبة النبي ﷺ لا تصح إلا مع طاعة

الله وتوحيده، ورفعة الإنسان لا تساوي شيئاً إن لم ترده إلى ربه.

إِنْ {وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ} آية تملأ القلب بمحبة النبي ﷺ، وبالثقة في وعد الله،

وبالزهد في ضجيج الناس، وبالخوف من فتنة الظهور، وباليقين أن الله إذا

أراد رفع معنى لم تستطع الأرض كلها أن تدفنه.

وقد يطول الليل حول كلمة الحق.

وقد تتكاثر الألسنة عليها.

وقد يخيل إلى صاحبها أنها وُئدت.

ثم يرفعها الله من حيث لا يحتسب.

لأن الرفع ليس قرار الجمهور.

بل فضل الله.

وما كان لله، حفظه الله بالقدر الذي يريد، في الموضع الذي يريد، على

الوجه الذي يريد.

وهنا يعود القلب إلى السورة كلها مطمئنًا:

إذا ضاق، فالله يشرح.

إذا ثقل، فالله يضع.

إذا خفي، فالله يرفع.

إذا عسر، فمع العسر يسر.

إذا فرغ، فليقم.

وإذا قام، فلا يرغب إلا إلى ربه.

الفصل السابع

سر الاقتران بين شرح الصدر ورفع الذكر

ليست سورة الشرح مجموعة نعم متجاوزة بلا نظام، بل هي بناء محكم، تتقدم فيه النعمة الأولى لتؤسس ما بعدها، وتتأخر فيه النعمة اللاحقة لتكشف ثمرة ما قبلها. فشرح الصدر ليس معنى معزولاً، ووضع الوزر ليس تخفيفاً منفصلاً، ورفع الذكر ليس تكريماً طارئاً؛ بل هي حلقات في تربية واحدة، تبدأ من الداخل، ثم تخفف موضع الحمل، ثم يظهر أثرها في الخارج.

وهذا الاقتران بين شرح الصدر ورفع الذكر من ألطف أسرار السورة؛ لأن الله لا يرفع الذكر رفعاً مباركاً إلا بعد أن يهيئ الصدر لحمله. فالذكر إذا ارتفع قبل أن يتسع الصدر، صار ضيقاً جديداً. والظهور إذا سبق النضج، صار ابتلاءً مكشوقاً. والحضور في الناس إذا لم يسبقه حضور مع الله، جعل الإنسان عبداً للصورة، سريع الانفعال، شديد التعلق بردود الأفعال، قلقاً من النقص، خائفاً من التجاهل، مأسوراً للمقارنة.

ولهذا بدأ الله بالصدر.

كأن السورة تقول: لا تطلب أن يعلو اسمك قبل أن يتسع قلبك. ولا تطلب أن يراك الناس قبل أن يراك الله في موضع الصدق. ولا تطلب أن ترفعك الألسنة، وأنت لم تتعلم بعد كيف تخفض نفسك لله.

الرفع نعمة، لكنه لا يكون آمناً إلا إذا سبقته تربية. ولذلك كان أكمل الخلق رفعا أكملهم صدرا، وأعظمهم ذكرا أعظمهم عبودية، وأعلى الناس مقاما أشدهم افتقارا إلى ربه ﷻ. لم تفسده الرفة؛ لأنها لم تكن منفصلة عن العبودية. ولم يجعله علو الذكر طالبا لنفسه، لأن الله رباه على أن كل فضل منه وإليه.

وهذا ميزان يحتاجه كل صاحب معنى.

فما أكثر الذين يطلبون الأثر قبل أن يطلبوا الاستقامة. ويطلبون الانتشار قبل أن يطلبوا الطهارة. ويطلبون أن تكون لهم كلمة مسموعة قبل أن يسألوا: هل صدورنا واسعة للحق الذي نقوله؟ هل نستطيع أن نحمل المدح دون أن ننقح؟ هل نستطيع أن نحمل الذم دون أن ننكسر؟ هل نستطيع أن نبقي أوفياء للمعنى إذا لم يصفق له أحد؟ هل نستطيع أن نقول الكلمة لله، ثم نمضي دون أن نراقبها في أفواه الناس كما يراقب الجائع رغيته؟

هنا يظهر معنى شرح الصدر بوصفه شرطا خفيا للرفع الطاهر.

الصدر الضيق يفسد الذكر المرفوع؛ لأنه يستعمله لا ليعود الحق، بل ليعوض نقصه. يريد من الناس أن يمنحوه الشعور بالقيمة. يريد من الأضواء أن ترمم داخله. يريد من المدح أن يقول له كل يوم: أنت موجود. فإذا انقطع عنه الذكر اضطرب، وإذا نُقد احترق، وإذا تقدم غيره عليه ضاق، وإذا خفت صوته ظن أنه انتهى.

أما الصدر المشروح فلا يجعل الذكر مصدر وجوده. يعرف أن قيمته في عبوديته، وأن أثره فضل، وأن قبول الناس ليس أصل النجاة، وأن الرفع إن جاء فهو امتحان شكر، وإن تأخر فهو امتحان صبر.

الصدر المشروح يقدر أن يكون مذكورًا دون أن يعبد الذكر. ويقدر أن يكون مخفيًا دون أن يكره الخفاء. ويقدر أن يعمل حين يُرى، وأن يعمل حين لا يُرى. لأن وجهته لم تعد معلقة بعيون الناس.

ومن هنا نفهم لماذا رُتب الرفع بعد الوضع أيضًا. فالظهر المثقل لا يحسن حمل الرفع. قد يظن الإنسان أن الظهور يداويه، لكنه أحيانًا يكشف جراحه. قد يظن أن الشهرة ستنتهي إحساسه بالثقل، فإذا بها تضيف عليه أثقالًا جديدة: ثقل المحافظة على الصورة، وثقل الرد على الخصوم، وثقل توقعات المحبين، وثقل الخوف من السقوط، وثقل الحضور الدائم.

فإذا لم يكن الله قد وضع عنه ما أنقض ظهره، جاء الرفع ليزيد الانقضا.

لهذا يكون من رحمة الله أحيانًا أن يؤخر رفع الذكر حتى يخف الظهر، وأن يحجب الإنسان عن الناس حتى يصلح له الظهور، وأن يربيه في الخفاء حتى لا يفضحه العلن. فالخفاء ليس دائمًا عقوبة. قد يكون حضانة. وقد يكون حفظًا. وقد يكون سترًا على قلب لم يكتمل اتساعه بعد.

والذي يفهم سورة الشرح لا يستعجل باب الرفع قبل أوانه. يسأل الله الصدر قبل الاسم، والخفة قبل الظهور، والإخلاص قبل القبول، والصدق قبل الانتشار.

ذلك أن الرفع إذا جاء من غير هذه المقدمات، صار فتنة لا نعمة.

وقد جرت عادة الناس أن يقيسوا نجاح الدعوات والأفكار والأعمال بقدر ارتفاع الذكر، لكن السورة تصحح هذا القياس: ليست العبرة بمجرد أن يُرفع الذكر، بل بمن رفعه، ولماذا رُفع، وماذا صنع الرفع بصاحبه، وإلى أين قاده. فقد يرفع الناس ذكر باطل، فيكون ارتفاعه وبالأعلى عليه وعليهم. وقد يرفع الله ذكر حق، فيكون ارتفاعه هداية وبركة، ولو بدأ قليلاً.

وهنا ينبغي التفريق بين الذكر بوصفه شهرة، والذكر بوصفه بقاءً في الحق.

الشهرة قد تكون ضجيجاً حول الفراغ.

أما الذكر المبارك فهو حضور المعنى في القلوب.

الشهرة قد تطلب العين.

أما الذكر المبارك فيوقظ البصيرة.

الشهرة قد تجعلك موضوعاً للكلام.

أما الذكر المبارك فيجعلك سبباً للتذكير بالله.

وهذا هو الرفع الذي يستحق أن يُطلب من الله، لا طلباً للنفس، بل طلباً لنصرة الحق. أن يجعل الله لك ذكراً طيباً لا يفسدك، وأنثراً صالحاً لا يقطعك عنه، وقبولاً لا يملأ صدرك بنفسك، بل يزيدك خضوعاً.

وقد كان رفع ذكر النبي ﷺ من هذا الباب في كماله الأعلى: رفعًا لا يدور حول شخص منفصل عن الوحي، بل حول رسول يدل على الله، ويأمر بعبادة الله وحده، ويخرج الناس من عبادة العباد إلى عبادة رب العباد. فكل ذكر صحيح له ﷺ إنما يقود إلى الله، لا يقف عند ذاته الشريفة وقوفًا يقطع عن التوحيد. وهذا من كماله: أن علوه كله علو عبودية، وأن مجده كله مجد رسالة، وأن حبه لا يكتمل إلا باتباعه فيما جاء به عن ربه.

وفي هذا سر عظيم لأصحاب المعاني: خير ذكر لك هو ما دل الناس على الحق، لا ما أوقفهم عندك. فإذا صار الناس يحبونك أكثر مما يحبون المعنى الذي تحمل، فراجع الطريق. وإذا صار اسمك يغطي على رسالتك، فهذه علامة خطر. وإذا صار حضورك يطلب لنفسه التصفيق أكثر مما يطلب هداية الناس، فقد بدأ الذكر ينحرف عن بركته.

إن الذكر المرفوع حقًا هو الذي إذا ذكر صاحبه، ذكر معه معنى صالح. وإذا حضر اسمه، حضر معه أثر طيب. وإذا أحبه الناس، أحبوا فيه ما قربهم من الله، لا ما زاد تعلقهم بصورة بشرية.

أما الذكر الذي يصنع حول الإنسان هالة فارغة، فليس رفعًا ولو بدا كذلك. إنه عبء مزخرف.

ولهذا جاءت السورة في غاية الانضباط: {وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ}، ثم لم تقف عند الذكر، بل مضت إلى: {فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا}، ثم إلى: {فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ}، ثم إلى: {وَإِلَى رَبِّكَ فَارْغَبْ}. كأنها تمنع الذكر أن يتحول إلى محطة نهائية.

لا تقف عند الرفع. الرفع ليس نهاية. بعده عسر ويسر، وعمل ونصب، ورغبة إلى الله.

وهذا من أبلغ ما يربّي به القرآن النفس: لا يسمح لها أن تصنع من أي نعمة صنماً. حتى الرفع لا يجعله ختاماً. لا يقول بعده: فاسترح. بل يقول: إن مع العسر يسراً، فإذا فرغت فانصب.

فيا صاحب الذكر، الطريق لم ينته.

ويا من رُفِع لك اسم في خير، لا تسكن إلى الاسم.

ويا من فتح الله لك باب قبول، لا تجعل القبول فراشاً للنوم.

ويا من أحسن الناس الظن بك، كن أخوف الناس على نفسك.

الرفع لا يعفيك من النصب.

بل يزيدك مسؤولية عنه.

ولذلك كان الاقتران بين شرح الصدر ورفع الذكر تربية مزدوجة: تربية قبل الرفع، وتربية بعده. قبل الرفع تحتاج صدرًا يتسع حتى لا تطلبه بذل. وبعد الرفع تحتاج صدرًا يتسع حتى لا تفسد به. قبل الرفع تحتاج صبر الخفاء. وبعد الرفع تحتاج شكر الظهور. وكلاهما لا يكون إلا بشرح من الله.

وهنا تتجلى حكمة تأخير الرفع في حياة بعض الصادقين. إن الله لا يضيعهم، لكنه قد يطيل عليهم مرحلة الخفاء حتى يصير الرفع آمناً لهم. فالإنسان في أول طريقه قد يظن أنه مستعد للظهور، وهو لا يعرف ما في الظهور من سموم دقيقة. لا يعرف كيف يبذل المدح نبرة الصوت. لا يعرف كيف يغير

القبول طريقة النظر إلى الناس. لا يعرف كيف يدخل العجب في النية من باب الخدمة. لا يعرف كيف تصير الرسالة ملكية شخصية، فيغضب لها حين تمس صورته أكثر مما يغضب لها حين يمس الحق.

ولذلك من رحمة الله أن يكسر فيك حب الرفع قبل أن يرفعك.
وأن يطهرك من الجوع إلى الناس قبل أن يفتح لك قلوب الناس.
وأن يعلمك أن تعمل في الظل قبل أن يخرج عملك إلى الضوء.
وأن يجعلك تعرف ضعفك قبل أن يراك الناس قويًا.

من لم يتعلم الضعف بين يدي الله، أفسدته القوة بين أيدي الناس.

ولعل هذا من أسرار أن سورة الشرح تبدأ بالمنة لا بالإنجاز. فالنبي ﷺ لا يُخاطب فيها بما فعل أولًا، بل بما فعل الله له: شرحنا، وضعنا، رفعنا. وهذا التكرار للفعل الرباني يربّي القلب على أن يرى فضل الله سابقًا على كل أثر.

ليس الصدر من صنعك.

ولا وضع الوزر من قدرتك.

ولا رفع الذكر بيدك.

ولا اليسر مع العسر اختراعك.

حتى النصب الذي ستقوم به، لن تقوم به إلا بمدد الله.

والرغبة نفسها لا تصح إلا إذا هداك الله إليها.

هكذا تنزع السورة من النفس جذور الدعوى.

فإذا رُفِعَ الذكر بعد ذلك، لم يقل العبد: أنا.

بل قال: ربي.

وإذا فُتِحَ له باب، لم يقل: مهارتي وحدها.

بل قال: فضل الله ثم ما يسر من أسباب.

وإذا وجد قبولاً، لم يقل: استحققت.

بل قال: أكرمت، وأبتليت، وسأسأل.

هذا الوعي هو الذي يجعل الذكر المرفوع سلماً إلى الشكر لا إلى الطغيان.

وفي واقع الناس، قد يكون رفع الذكر من أخطر المواطن؛ لأن النفس تتخفى فيه بلباس الخير. قد يزهد الإنسان في المال، ولا يزهد في الذكر. قد يترك كثيراً من الشهوات الظاهرة، ثم يبقى أسير شهوة أن يُذكر، أن يُشار إليه، أن يُعاد نشر كلامه، أن يُقدّم في المجالس، أن تُنسب إليه المعاني، أن يعرف الناس أنه كان صاحب الأثر.

وهذه شهوة رقيقة، لا يكتشفها الإنسان بسهولة؛ لأنها تتغى أحياناً بعبارات النفع العام. يقول: أريد أن ينتشر الخير. وقد يكون صادقاً، لكن داخل الصدق بقايا رغبة في الظهور. يقول: أريد أن تصل الرسالة. وقد يكون صادقاً، لكن قلبه يفرح أحياناً بوصول اسمه أكثر من وصول الرسالة.

وسورة الشرح تدوي هذا المرض من أصله، لا بأن تدم الرفع مطلقاً، بل بأن ترده إلى الله. الرفع ليس شيئاً تنتزعه، بل شيء يمنحه الله. والذكر ليس ملكاً لك، بل أمانة عليك. والاسم إذا ارتبط بالحق، صار أخطر من أن تعبت به النفس.

فمن أراد ذكرًا مباركًا، فليطلب أولاً صدرًا مشروحًا.
ومن أراد أثرًا باقيًا، فليطلب ظهرًا مخففًا من أوزار التعاضم.
ومن أراد رفعة لا تفسده، فليكثر من الرغبة إلى الله.

وليس معنى ذلك أن يهرب الإنسان من كل حضور. فالهروب من الحضور قد يكون أحيانًا عجزًا متسترًا بالزهد. إنما المقصود أن يحضر الإنسان بقلب غائب عن طلب نفسه، حاضر مع حقه وربّه. فإذا احتاج الحق إلى ظهوره ظهر، وإذا صلح له الخفاء خفي، لا يحكمه خوف الناس ولا شهوة الناس.

وهذا مقام عزيز: أن لا تكون عبد الظهور ولا عبد الخفاء.
بل عبد الله.

فقد يكون الظهور طاعة إذا دعا إليه الواجب.

وقد يكون الخفاء طاعة إذا حفظ الإخلاص.

وقد يكون الظهور فتنة إذا طلبته النفس.

وقد يكون الخفاء فتنة إذا كان هروبًا من المسؤولية.

وسورة الشرح لا تعطينا حكمًا سطحيًا، بل ميزانًا: الصدر، الوزر، الذكر، العسر، اليسر، النصب، الرغبة. كل شيء يُقرأ في ضوء هذا الميزان. إن كان الرفع يأتي بعد شرح ووضع، ويقود إلى نصب ورغبة، فهو نعمة. وإن جاء من ضيق، وقاد إلى غرور وكسل، فهو خطر.

ومن هنا نفهم أن الرفع النبوي جاء في موضعه الأكمل؛ لأنه رفع محفوظ بالوحي، محاط بالعبودية، مقصده هداية الخلق إلى الله. أما غيره من الخلق

فيحتاج أن يخاف على نفسه، وأن يسأل الله السلامة، وأن لا يتخذ من هذه الآية ذريعة لطلب شهرة، بل مدرسة لفهم الرفعة كما يريدّها الله.

ثم إن اقتران شرح الصدر برفع الذكر يكشف سرّاً آخر: أن الذكر المرفوع لا يكون عوضاً عن شرح الصدر. فكم من إنسان ظن أنه إذا عُرف ارتاح. وإذا مُدح اطمأن. وإذا انتشر عمله زال قلقه. لكنه بعد الرفع وجد الضيق كما هو، وربما أشد. لماذا؟ لأن الرفع الخارجي لا يعالج صدرًا لم يُشرح. الشهرة لا تداوي الحرج الداخلي. والتصفيق لا يفتح القلب المغلق. وكثرة المعجبين لا تصنع سكينه.

السكينة تأتي من الله.

والصدر يشرحه الله.

أما الناس فقد يرفعون صوتك ولا يداوون صمتك الداخلي.

لذلك لا تجعل الذكر بديلاً عن الشرح. اطلب الشرح أولاً. لأنك إذا شُرح صدرك استطعت أن تعيش بغير ذكر واسع، وإذا رُفع ذكرك عشت به دون أن تختنق. أما إذا لم يُشرح صدرك، فلن يكفيك شيء: لا مدح، ولا انتشار، ولا اعتراف، ولا منبر، ولا جمهور. ستظل تطلب المزيد لأن الداخل لم يمتلئ بالله.

وهذه من أوجع حقائق النفس: أنها إذا لم تجد سعتها في الله، طلبت من الخلق ما لا يقدرّون عليه. تريد منهم أن يكونوا مصدر طمأنينتها، وهذا ظلم لهم ولها. فالخلق ينسون، ويملّون، ويخطئون، ويتبدلون، ويمدحون اليوم ما

يذمون غداً. أما الله فهو الذي إذا شرح الصدر، صار العبد غنياً به في حضرة الناس وغيبتهم.

وهنا يكتمل سر الاقتران: شرح الصدر يحميك من عبودية الذكر، ورفع الذكر إذا جاء من الله يصبح أثراً للنعمة لا أصلاً لها. أي إن الرفع لا يصنع السعة، بل السعة هي التي تؤهل للرفع.

وهذا المعنى لو استقر في قلوب العاملين والكتّاب والمصلحين لتغيرت أخلاق كثيرة. لخف التنافس المريض. لقل الحسد بين أصحاب المعاني. لهان أن يتقدم غيرك في موضع إذا كان يعمل للحق. لهان أن يُنسى اسمك إذا وصل المعنى. لهان أن تُنقد إذا كان النقد يعيدك إلى الصواب. لهان أن تعمل طويلاً بلا ضجيج، لأنك لا ترى نفسك خارج عين الله.

إن الصدر الضيق يحسد؛ لأنه يظن الرفع محدوداً، فإذا رُفع غيره نقص هو. أما الصدر المشروح فيفرح بالحق إذا ظهر على يد غيره؛ لأنه يعلم أن المقصد ليس ذاته. وهذا من علامات الإخلاص الدقيقة: أن تفرح بانتصار المعنى ولو لم تكن أنت واجهته.

أما من يفرح بالحق فقط حين يمر من خلاله، فليفتش في صدره.

سورة الشرح تعلمنا أن الصدر إذا شُرح صار واسعاً حتى لنجاحات الآخرين، وصار الرفع عنده فضلاً لا غنيمة، وصار الذكر الطيب نعمة يشكرها لمن نالها في الحق، لا ساحة حرب نفسية.

ولهذا كان شرح الصدر ضرورة أخلاقية أيضاً. ليس مجرد طمأنينة داخلية، بل أصل في نقاء العلاقة بالناس. الضيق الداخلي ينتج أخلاقاً ضيقة: حسداً، وسوء ظن، وغضباً سريعاً، ورغبة في احتكار الفضل. أما الصدر المشروح فينتج أخلاقاً واسعة: إنصافاً، ورحمة، وصبراً، وفرحاً بالخير، وقدرة على الاعتراف بفضل الآخرين.

ومن عجيب ترتيب السورة أنها بعد رفع الذكر مباشرة تقول: {فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا}. كأنها تذكر بأن رفع الذكر لا يلغي العسر. وهذا يطهر الرفع من الوهم. لا تقل: إذا رُفِعَ ذكرى فلن أواجه عسراً. بل اعلم أن العسر باقٍ في الطريق، لكن معه يسر. وبهذا لا يصير الرفع وعداً بحياة مدللة، بل يصبح كرامة داخل طريق مكلف.

فالرسول ﷺ رُفِعَ ذكره، ومع ذلك عاش العسر. ورُفِعَ ذكره، ومع ذلك جاهد وصبر وهاجر وفقد وتألّم. ورُفِعَ ذكره، ومع ذلك بقي عبداً عاملاً حتى لقي ربه.

فلا تجعل الرفع خيالاً عن الراحة. اجعله شكراً داخل العمل.

وهذا مهم جداً لمن يظنون أن الوصول إلى مكانة معينة سينهي تعبهم. المكانة لا تنهي التعب؛ قد تغير نوعه. والذي لا يتربى قبل المكانة يتعذب بها بعدها. لذلك السعيد ليس من رُفِعَ فقط، بل من شُرح صدره للرفع، وُضِعَ عنه ما يمنعه من حمله، ثم وُفق أن يجعل الرفع طريقاً إلى الله.

وفي هذا الباب، قد يكون من دعاء العبد العميق:
اللهم إن رفعت لي ذكراً، فلا تجعلني أسقط به من عينك.
وإن حجبته عن الناس، فلا تجعل خفائي قنوطاً.
واشرح صدري لما تحب، وضع عني ما يثقلني عن طاعتك، واجعل ذكري
إن رُفِعَ سبباً إلى الحق لا حجاباً عنه.

هذا الدعاء يخرج من قلب فهم سورة الشرح.

فالسورة لا تغذي الطموح المريض، لكنها لا تقتل الطموح الشريف. لا تقول
للإنسان: لا تطلب أثراً. بل تقول: لا تطلبه من غير بابه، ولا تحمله بغير أدبه،
ولا تجعله نهاية رغبتك. كن واسعاً بالشرح، خفيفاً بالوضع، أميناً في الرفع،
صبوراً في العسر، بصيراً باليسر، عاملاً بعد الفراغ، راغباً إلى ربك.

هذه هي المعادلة.

ومن لم يجمعها اختل.

إن طلب الشرح بلا نصب قد يتحول إلى استرخاء.
وطلب الرفع بلا شرح قد يتحول إلى فتنة.
وطلب اليسر بلا عسر قد يتحول إلى طفولة.
وطلب العمل بلا رغبة إلى الله قد يتحول إلى جفاف.
وطلب الذكر بلا وضع الوزر قد يتحول إلى انكسار تحت صورة لامعة.

أما السورة فتجمع كل شيء في نسق واحد، كأنها تقول: لا تفصل النعم عن
واجباتها، ولا الواجبات عن مددها، ولا المدد عن مصدره.

ومن هنا نستطيع أن نقرأ اقتران شرح الصدر ورفع الذكر بوصفه قانونًا تربويًا: لا يليق بالذكر أن يرتفع فوق الصدر، بل ينبغي أن يكون الصدر أوسع من الذكر. فإذا صار الذكر أكبر من الصدر، تهشم الإنسان من الداخل. وإذا كان الصدر أوسع من الذكر، حمله بأدب، أو استغنى عنه بأدب.

وهذه منزلة الكبار: صدورهم أوسع من أسمائهم.

أما الصغار، فأسماءهم أوسع من صدورهم، لذلك يتعبون بكل حركة حولها.

ومن أراد أن يكون كبيرًا عند الله، فليبدأ من حيث بدأت السورة: الصدر. لا من المنصة، ولا من الجمهور، ولا من السمعة. فإذا شرح الله صدره، صار قادرًا على أن يعمل في كل حال: في الخفاء والظهور، في المدح والذم، في العسر واليسر.

وهكذا يصبح رفع الذكر ليس رغبة منفصلة، بل ثمرة تأتي في وقتها، بقدرها، من ربها.

والأعظم من ذلك كله أن تنتهي رغبة العبد إلى الله لا إلى ذكره. فمن انتهت رغبته إلى الله سلم، ولو خفي. ومن انتهت رغبته إلى ذكره تعب، ولو ظهر.

ولذلك تختم السورة بما يحرس كل ما قبلها:

{وَالِى رَبِّكَ فَارْغَبْ}.

فإذا شرح صدرك، فارغب إليه.

وإذا وضع وزرك، فارغب إليه.

وإذا رفع ذكرك، فارغب إليه.

وإذا جاء العسر، فارغب إليه.

وإذا صحبه اليسر، فارغب إليه.

وإذا فرغت ونصبت، فارغب إليه.

الرغبة إلى الله هي القفل الذهبي للسورة. بها لا تفسد النعم. وبها لا تسحقك الأثقال. وبها لا يسرقك الرفع. وبها لا يبتلعك العسر. وبها لا يحولك العمل إلى آلة.

وهنا ندرك أن السورة ليست فقط عن شرح صدر النبي ﷺ، ولا فقط عن رفع ذكره، بل عن بناء الإنسان الذي لا يخرج من يد الله في أي طور من أطواره. في الضيق مع الله. في الخفة مع الله. في الرفع مع الله. في العسر مع الله. في اليسر مع الله. في العمل مع الله. وفي الرغبة الأخيرة إلى الله.

فما أجمل هذا البناء، وما أرحمه، وما أشده حاجة لكل قلب يحمل شيئاً من أثقال الطريق.

الفصل الثامن

{فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا}: القانون الأول للنجاة

بعد أن تذكر السورة المنن الثلاث الكبرى: شرح الصدر، ووضع الوزر، ورفع الذكر، تنتقل إلى تقرير القانون الذي سيحكم الطريق كله: {فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا}

وهنا لا تأتي الفاء عبثًا. إنها تربط ما قبلها بما بعدها. كأن السورة تقول: إذا كان الله قد شرح، ووضع، ورفع، فلا تقرأ العسر قراءة يتيمة. لا تنظر إليه منفردًا. لا تعزله عن سنن الرحمة. لا تجعله حقيقة عارية من اللطف. فإن مع العسر يسرًا.

هذه الآية ليست جملة مواساة عامة، بل قانون رباني في قلب الابتلاء. وهي لا تنكر العسر، بل تبدأ به. تقول: العسر موجود. لا تتهرب من اسمه. لا تزوره باسم آخر. لا تتظاهر بأنه ليس عسرًا. لكن لا تمنحه حق الانفراد بالمشهد.

فإن معه يسرًا.

والكلمة الفاصلة هنا هي: {مَعَ}.

لم يقل: بعد العسر يسر فقط، مع أن هذا المعنى صحيح في مواضع أخرى. بل قال هنا: {مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا}. والمعية تفتح بابًا عميقًا في فهم البلاء. فاليسر

ليس دائماً شيئاً ينتظر العبد عند نهاية النفق. أحياناً يكون معه في داخله. قد لا يزيل الظلمة كلها، لكنه يمنعها أن تكون مطلقة. قد لا يرفع الحمل فوراً، لكنه يعطي الظهر قدرة على الصمود. قد لا يغير الواقع بسرعة، لكنه يغير القلب في مواجهة الواقع.

وهذا من أدق معاني السورة: أن الله لا يجعل العسر صافياً من الرحمة. العسر نفسه محاط بالأطاف، مصحوب بمنافذ، مشدود بخيوط خفية من اليسر. لكن الصدر الضيق لا يرى إلا العسر، أما الصدر المشروح فيبدأ في التقاط اليسر المصاحب.

كم من عسر كان معه يسر العلم.
وكم من عسر كان معه يسر التوبة.
وكم من عسر كان معه يسر انكشاف الناس.
وكم من عسر كان معه يسر التحرر من وهم.
وكم من عسر كان معه يسر الدعاء.
وكم من عسر كان معه يسر كسر الكبر.
وكم من عسر كان معه يسر الرجوع إلى الله بعد طول غفلة.

ليس كل يسر مائلاً يأتي.
ولا كل يسر باباً يفتح في الخارج.
هناك يسر في الفهم.
ويسر في الصبر.
ويسر في السكينة.

ويسر في صرف الشر.

ويسر في أن لا يتركك الله لنفسك.

ويسر في أن يريك ضعفك قبل أن يقتلك غرورك.

ويسر في أن تسقط من عين من كان سقوطك من عينه نجاة لك.

ويسر في أن تتأخر عن شيء كان سيأخذك بعيداً عن ربك.

لكن الإنسان يستعجل اليسر الظاهر، فإذا لم يأتِ على الصورة التي رسمها، قال: أين اليسر؟ كأنه يريد من الله أن يوقع له على تصوره الخاص للفرج. أما السورة فتربيته على أدب أوسع: اليسر مع العسر، لكنه ليس بالضرورة تحت أمرك، ولا على صورتك، ولا في توقيتك، ولا في الباب الذي تحدده.

قد يكون اليسر أعمق من رغبتك، لا مطابقاً لها.

وهذا يحرر القلب من ضيق التوقع. فقد يطلب الإنسان فرجاً معيناً، فيعطيه الله ثباتاً. وقد يطلب خروجاً سريعاً، فيعطيه بصيرة. وقد يطلب انتصاراً ظاهراً، فيعطيه نجاة من داخله. وقد يطلب أن يذهب العسر، فيجعل الله معه يسراً يربيته حتى يحين وقت ذهابه.

والعبد لا يعلم دائماً أي العطاءين أرحم به: زوال العسر، أم يسر يصحبه حتى ينضج.

إن قوله تعالى: {فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا} يعيد تشكيل وعينا بالابتلاء. فالعسر ليس كتلة صماء. ليس جداراً بلا شقوق. ليس ظلاماً بلا مسارب نور. العسر

في ميزان الوحي مشهد مركب؛ فيه ألم، نعم، لكن فيه تربية. فيه ضيق، نعم، لكن فيه فتح. فيه منع، نعم، لكن فيه حفظ. فيه تأخير، نعم، لكن فيه إعداد.

العسر ليس ضد العناية دائماً.

قد يكون أداة من أدواتها.

وهذا المعنى لا يفهمه القلب إلا إذا تحرر من التصور الساذج للحياة. التصور الذي يظن أن محبة الله تعني أن لا يقع للعبد ما يكره، وأن العناية تعني أن تمشي الأمور كما يحب، وأن اليسر يعني غياب الكلفة. لكن القرآن يقدم تصوراً أعلى: قد يحبك الله ويبتليك. وقد يعتني بك ويؤخرك. وقد يرحمك بعسر يمنع عنك عسراً أشد. وقد يعطيك يسراً مستتراً لا تراه إلا بعد زمن.

ولهذا لا يجوز أن نحاكم رحمة الله إلى لحظة ضيقة من وعينا. فالعبد يرى موضع الألم، والله يعلم تمام القصة. العبد يرى الباب المغلق، والله يعلم الطريق الذي لو فتح له لأهلكه. العبد يرى تأخر الشيء، والله يعلم أن نضجه لم يكتمل. العبد يرى خسارة، والله يعلم أنها كانت فدية من خسارة أعظم.

والإيمان ليس أن نفهم كل شيء، بل أن نثق بمن يعلم كل شيء.

لكن هذه الثقة ليست عمياء بمعنى تعطيل العقل، بل هي بصيرة العبد بحدود علمه. هو يعلم أن الله حكيم رحيم، وأنه سبحانه لا يشبه خلقه، ولا يجري فعله على نقص أو عبث، وأنه أعلم بمواقع الرحمة من عبده. فيطمئن لا لأنه امتلاك تفسيراً لكل جزئية، بل لأنه عرف ربه.

ومن هنا كانت الآية بعد المنن الثلاث؛ لأن من رأى شرح الصدر، ووضع الوزر، ورفع الذكر، صار مؤهلاً أن يصدق قانون اليسر مع العسر. فالسورة لا تقول لك: صدق اليسر بلا شاهد، بل تذكرك بشواهد الرحمة في أولها. ألم نشرح؟ ألم نضع؟ ألم نرفع؟ إذن لا تجعل العسر القادم أو القائم منفصلاً عن هذه الربوبية الرحيمة.

إن الذاكرة الإيمانية أساس في مقاومة اليأس. من نسي نعم الله السابقة، استوحش من البلاء الحاضر. ومن تذكر كيف شرح الله صدره يوماً، ووضع عنه يوماً، ورفعته يوماً، استطاع أن يقول في العسر الجديد: كما لم يتركني ربي هناك، لن يتركني هنا.

وهنا يظهر الفرق بين الذاكرة المسمومة والذاكرة المؤمنة.
الذاكرة المسمومة تجمع أدلة الخوف.
والذاكرة المؤمنة تجمع شواهد اللطف.
الأولى تقول: كل ما وقع لي دليل أنني متروك.
والثانية تقول: كم مرة كنت أظنها النهاية، ثم جعل الله معها يسراً.
سورة الشرح تصنع هذه الذاكرة المؤمنة.

ثم إن الآية لا تقول: مع عسرك يسر فقط، بل جاءت بصيغة عامة: {مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا}. وكأنها تفتح قانوناً يتجاوز الواقعة الواحدة. كل عسر في طريق الله ليس مطلقاً من كل يسر. قد يختلف اليسر قدراً وصورة وزماناً، لكنه حاضر بحكمة الله. وهذه القاعدة تجعل المؤمن لا ينهار عند أول عسر، لأنه

يعلم أن العسر ليس إلهاً مستقلاً في الكون. العسر مخلوق، محكوم، محدود، داخل تحت تدبير الله.

العسر لا يملكك.

العسر لا يعلم الغيب.

العسر لا يقرر نهايتك.

العسر لا يخلق ما يفتحه الله.

العسر لا يمنع اليسر الذي قضاه الله.

إنه عسر، لا رب.

وهذه الجملة وحدها ترد الإنسان إلى التوحيد. لأن بعض الناس دون أن يشعروا يعاملون العسر كأنه مطلق. يخافونه خوفاً يبتلع يقينهم. يرونه أكبر من كل وعد. يجعلونه المرجع النهائي في التفكير. فإذا تكلم العسر سكت الرجاء. وإذا حضر العسر غابت أسماء الله الحسنى من القلب. وهذه صورة دقيقة من صور ضعف التوحيد العملي.

أما القرآن فيقول: {فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا}.

أي لا تعظم العسر حتى تنسى أن الله جعل معه يسراً. لا تمنحه من سلطان القلب ما ليس له. لا تقرأه بعيداً عن اسم الله اللطيف، والرحيم، والفتاح، والكافي، والوكيل.

ومن أعمق ما في الآية أنها تربي على الرجاء المنضبط، لا الرجاء الفوضوي. فهي لا تقول إن العسر وهم. ولا تقول إن اليسر سيأتي كما تشاء.

ولا تقول إن المؤمن لن يتألم. بل تقول إن العسر لا ينفرد. وهذا يكفي لبناء الرجاء الصادق. فالرجاء ليس أن نخترع واقعًا مريحًا، بل أن نرى في الواقع ما أخبر الله به من صحبة اليسر للعسر.

ولذلك لا يصح أن تتحول الآية إلى عبارة سطحية تقال للمتألمين دون فقه. ينبغي أن تقال ومعها رحمة. لأن من كان في عسر لا يحتاج إلى من يلغي عسره باسم اليسر. يحتاج إلى من يقول له: نعم، هو عسر. والله سماه عسرًا. لكنه ليس وحده. ومعه من لطف الله ما قد لا تراه الآن كله. فاصبر، وافتح عين قلبك، ولا تجعل الألم يحجبك عن الرفق المصاحب.

هكذا تكون المواساة قرآنية: صادقة، لا مخدرة؛ راحمة، لا متعالية؛ مبشرة، لا مستهينة.

إن من يقول للمتألم: لا شيء، أنت بخير، قد يزيده وحشة؛ لأنه يشعر أن ألمه غير مفهوم. أما القرآن فيقول: عسر. ثم يقول: معه يسر. فيعترف ويهدي. يسمى الجرح، ثم يدل على الرحمة.

وهذا من جمال الخطاب الرباني: لا يبتز الإنسان بالقوة، ولا يتركه للضعف. يعطيه حقه من الاعتراف، ثم يرفعه إلى ما وراء الاعتراف.

والآية كذلك تعلمنا أن اليسر ليس نقيض العسر دائمًا، بل رفيقه. وهذا يبذل طريقة انتظارنا. فنحن غالبًا ننتظر اليسر كحادث مستقبلي ينهي العسر، بينما السورة تدعونا أن نبحث عنه كمعية حاضرة. أن نسأل: ما اليسر الذي جعله الله مع هذا العسر الآن؟ ما الباب الصغير المفتوح في هذا الجدار؟ ما النعمة

التي لم تسقط رغم البلاء؟ ما المعنى الذي وُلد من الضغط؟ ما الذنب الذي انكسر؟ ما الدعاء الذي صدق؟ ما الإنسان الذي اكتشفته؟ ما الوهم الذي زال؟ ما القوة التي لم أكن أعرفها في قلبي حتى اضطررت إليها؟

هذه الأسئلة لا تزيل العسر دائماً، لكنها تمنعه أن يصير ظلاماً كاملاً.

ولعل من أعظم اليسر مع العسر أن يعرف الإنسان نفسه. فكم من عافية طويلة جعلت الإنسان مجهولاً عند نفسه. يظن أنه صبور لأنه لم يمتحن. ويظن أنه زاهد لأنه لم تعرض عليه الدنيا. ويظن أنه شجاع لأنه لم يواجه خوفاً حقيقياً. فإذا جاء العسر، كشفه، لا ليفضحه فقط، بل ليعرف موضع التربية فيه.

قد يكون اليسر في أن تعرف ضعفك مبكراً.

أن ترى هشاشتك قبل أن تبني عليها مشروعاً كبيراً.

أن تعرف أن قلبك يحتاج إلى الله أكثر مما كان يظن.

أن تعرف أنك لست صلباً بذاتك، وأن كل ما فيك من ثبات إنما هو عطاء.

هذا يسر وإن جاء في ثوب عسر؛ لأنه ينقذك من غرور كان سيكلفك أغلى.

ومن اليسر كذلك أن يطهر العسر رغبات الإنسان. فالرغبات في الرخاء تتكاثر، وتتزايد، وتتنزع القلب. فإذا جاء العسر، سقط كثير من الزائد. عرف الإنسان ما يحتاجه حقاً، ومن يحبه حقاً، وأين يضع قلبه حقاً. يصبح أكثر اقتصاداً في التعلق. أقل انبهاراً بالقشور. أدق في فهم الدنيا. وهذا يسر عظيم؛ لأن من لم تهذبه الشدة قد يعيش عمره محاطاً بالزينة، بعيداً عن الحقيقة.

ومن اليسر مع العسر أن الدعاء يتبدل. في الرخاء قد يدعو الإنسان بلسان مرتب، أما في العسر فيدعو من موضع أعمق. تنكسر الصياغات المتكلفة، ويخرج النداء عارياً إلا من الفقر. وهذا القرب الاضطراري، إذا صانه العبد من سوء الظن، قد يكون من أعظم أبواب الرحمة.

وكم من عبد لم يعرف صدق: يا رب، إلا حين ضاقت عليه الأرض.
وكم من قلب لم يتعلم السجود الحقيقي إلا حين لم يبق له إلا السجود.
وكم من عين لم تبصر الطريق إلا حين أطفأ العسر أضواء الزيف حولها.

فهل كان ذلك عسراً محضاً؟

لا.

كان معه يسر.

وهذا لا يعني أن نطلب البلاء، ولا أن نتمناه. فالعافية نعمة، وسؤال الله العافية من هدي المؤمن. لكن إذا وقع العسر، فلا ينبغي أن نقرأه قراءة كافرة باليسر. نفر إلى الله منه، ونطلب كشفه، ونأخذ بأسباب رفعه، لكننا في الوقت نفسه نبحت عن اليسر الذي جعله الله معه، حتى لا يبتلعنا.

إن المؤمن لا يمجّد العسر، لكنه لا يسمح للعسر أن يكفره باللفظ.

وهنا تظهر دقة كلمة {يُسْرًا} نكرة. كأنها تفتح احتمالات واسعة. يسر من حيث تعلم، ويسر من حيث لا تعلم. يسر ظاهر، ويسر خفي. يسر عاجل، ويسر مؤجل. يسر في القلب، ويسر في الطريق، ويسر في العاقبة، ويسر في

الأجر، ويسر في المعنى. لو عُرِّف اليسر ربما ضاق في صورة محددة، لكنه جاء نكرة ليبقى واسعاً، مفتوحاً على كرم الله.

أما العسر فجاء معرّفاً: {الْعُسْرِ}. وهذا مما تنبه له أهل العلم في التكرار اللاحق: العسر معرف، واليسر منكر. وفي ذلك إشعار بأن العسر، مهما بدا محدداً ضاغطاً، لا يملك أن يحاصر وجوه اليسر المتعددة. العسر واحد في قبضته، واليسر يتعدد في أبوابه.

قد يأتيك العسر من باب واحد، فتأتيك ألطاف الله من أبواب لا تحصيها.

يضيق الرزق، فيتسع الصبر.

يغيب معين، فيحضر توكل.

يشدد أذى، فتصفو نية.

يتأخر مطلوب، فينضج قلب.

تفقد شيئاً، فتجد الله أقرب إلى قلبك مما كان.

ومن عرف تعدد اليسر لم يحبس فرجه في صورة واحدة. وهذه من أهم ثمرات الآية. لأن حبس الفرغ في صورة واحدة يزيد العسر عسراً. يقول الإنسان: لن أكون بخير إلا إذا وقع كذا. لن أطمئن إلا إذا عاد كذا. لن أفرح إلا إذا فتح الباب المعين. فيضيق الواسع على نفسه.

أما المؤمن فيسأل الله ما يحب، لكنه يترك لله سعة التدبير. يقول: يا رب، أنت أعلم باليسر الذي يصلحني. قد أحب شيئاً، وتعلم أن غيره أرحم بي. فافتح لي من يسرك ما تهدي به قلبي، وترضي به عبوديتك، وتصلح به أمري.

وهذا لا يلغي الدعاء المحدد، لكنه يضعه داخل التفويض. فالعبد يسأل، والله يختار. والعبد يحب، والله يعلم. والعبد يرى اللحظة، والله يدبر العاقبة.

ومتى دخل هذا المعنى إلى القلب، خفّ ضغط التوقع، وصار العبد أكثر قابلية لاستقبال الطاف الله غير المتوقعة.

إن اليسر كثيرًا ما يأتي من جهة لم نحسبها، لأننا لو حسبناها لاتكلنا على حسابنا. يأتي من شخص لم نلتفت إليه، أو من باب ظنناه مغلقًا، أو من تأخير كرهناه، أو من منع بكينا عليه، أو من كلمة وقعت في القلب في وقتها، أو من آية قرأناها كثيرًا ولم تفتح لنا إلا في ساعة العسر.

وهذا من لطف الله الخفي: أنه لا يجعل كل يسرك تحت علمك؛ حتى تبقى مفتقرًا إليه.

سورة الشرح، بهذا القانون، لا تمنحنا مجرد أمل، بل تمنحنا طريقة رؤية. تقول لنا: انظروا إلى العسر من داخله. لا تقفوا عند قشرته الخشنة. لا تجعلوا أول ألم فيه آخر تفسير له. فتشوا عن المعية. عن اليسر المصاحب. عن الرحمة التي تمشي بجانب الوجع. عن الباب الصغير الذي لا يراه الصاخبون. عن اللطف الذي لا يتكلم بصوت عالٍ، لكنه يبيّكم واقفين.

وإذا رُزق العبد هذه الرؤية، تغيّر كل شيء.

قد يبقى العسر عسرًا، لكن القلب لا يبقى كما كان.

قد يبقى الطريق شاقًا، لكن السالك لا يعود أعمى.

قد يبقى الحمل، لكن الظهر يجد مدداً.
قد تبقى الدموع، لكنها تصير مغموسة بالرجاء.

وهذا هو الفرق بين الحزن في حضرة الوحي، والحزن بعيداً عنه. الحزن بعيداً عن الوحي ظلام يتكاثر من نفسه. أما الحزن في حضرة الوحي، فيظل حزناً، لكنه لا يملك أن يغلق السماء. تبقى فيه نافذة إلى الله.

وسورة الشرح تفتح هذه النافذة بكلمة واحدة: {مَعَ}.

ما أعظم هذه المعية.

ليست معية ذاتية كما يتوهم أهل التشبيه، فالله سبحانه منزّه عن مشابهة خلقه، ليس كمثله شيء، وإنما هي معية تدبير ولطف وتيسير بحسب ما يليق بجلاله، ومعية يسر جعله الله مصاحباً للعسر في واقع العبد. فالعسر ليس وحيداً، والعبد ليس متروكاً، واللطف ليس غائباً.

ومن تأمل هذه الكلمة عرف أن اليأس غالباً خطأ في القراءة قبل أن يكون خطأ في الشعور. اليأس يرى العسر ولا يرى معه. يقرأ نصف الآية في الواقع وينسى نصفها الآخر. يرى الضيق ولا يرى الشرح. يرى الوزر ولا يرى الوضع. يرى خفاء الذكر ولا يرى الرفع. يرى الفراغ ولا يرى النصب. يرى الرغبات المتناثرة ولا يردها إلى الرب.

أما السورة فتجمع له المشهد كله.

ولهذا كانت هذه الآية قانون النجاة الأول: لا تسمح للعسر أن ينفرد بخيالك. لا تجلس معه وحده في غرفة التفكير. أدخل عليه وعد الله. أدخل عليه ذاكرة

النعم. أدخل عليه معنى اليسر. أدخل عليه أسماء الله. أدخل عليه الدعاء. أدخل عليه الصبر. فإذا دخلت هذه المعاني، لم يختف العسر بالضرورة، لكنه يفقد طغيانه.

وهذا هو المطلوب في كثير من الأحوال: أن لا يطغى العسر على القلب.

فالنجاة ليست دائماً خروجاً سريعاً من الشدة، بل قد تكون منع الشدة من احتلال الداخل. وإذا لم تحتل الداخل، بقي الإنسان قادراً على العمل، والصلاة، والتفكير، والحب، والرحمة، والقيام بما يستطيع. أما إذا احتلت الداخل، فقد ينهار قبل أن يزول البلاء أو ينكشف.

ولذلك يبدأ العلاج من الصدر. ثم يأتي القانون: {فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا}.

الصدر المشروح هو الذي يستطيع أن يصدق هذا القانون. أما الصدر الضيق فيخاصمه، أو يستعجله، أو يسخر منه في لحظات الألم. ولهذا لا بد من طلب شرح الصدر دائماً؛ لأن الوعد العظيم يحتاج قلباً يستقبله.

كم من آية واسعة ضاقت في صدر ضيق.

وكم من كلمة قليلة فتحت حياة كاملة في صدر مشروح.

وسورة الشرح كلها دعوة إلى هذا الاتساع: أن تتسع لوعد الله كما تتألم من عسر الحياة. أن لا يكون وجعك أقوى حضوراً فيك من إيمانك. أن لا يكون ما فقدته أو خفته أو حملته أكبر من ربك في شعورك العملي.

وحين يصل القلب إلى هذا الموضع، يبدأ يقرأ العسر قراءة جديدة. لا يعود يسأل فقط: متى ينتهي؟ بل يسأل أيضاً: ما الذي يريد الله أن يعلمني فيه؟ ما اليسر الذي صحبه؟ ما الباب الذي فتحه في داخلي؟ ما الذي ينبغي أن أفعله الآن؟ كيف أفرغ من هذا إلى نصب يرضي الله؟ كيف أجعل رغبتي الأخيرة إلى ربي لا إلى مجرد زوال الألم؟

بهذا تتحول الآية من تعزية إلى منهج.

ولا يزال الوعد سيتكرر في الآية التالية: {إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا}.

وليس التكرار هنا زيادة لفظية، بل تثبيت لقلب يعرف الله ضعفه. فالإنسان قد يسمع الوعد مرة، ثم يضعف أمام ضغط العسر. فيأتي التكرار ليغرسه. كأن الوحي يطرق على باب القلب مرتين، لأن العسر يطرق عليه كثيراً. مرة لا تكفي دائماً لقلب أرهقته الحياة. فجاءت الثانية لا لتضيف معنى جديداً فقط، بل لتثبت المعنى الأول حتى يصير يقيناً.

فإذا كان العسر يكرر ضغطه على صدرك، فدع الآية تكرر وعدها في قلبك.

إذا قال العسر: أنا هنا، فقل: ومعك يسر.

وإذا عاد يقول: أنا شديد، فقل: لكنك لست وحدك.

وإذا حاول أن يقنعك أنه النهاية، فقل: أنت فصل، لا خاتمة.

وإذا ضاق بك الطريق، فقل: الذي شرح الصدر، ووضع الوزر، ورفع الذكر، جعل مع العسر يسراً.

هكذا يتكلم المؤمن مع عسره.

لا بلسان الغرور.

ولا بلسان الإنكار.

بل بلسان من تعلم من سورة الشرح أن العسر مهما اشتد، لا يملك أن يلغي وعد الله.

الفصل التاسع

{إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا}: لماذا تكرر الوعد؟

لم يكتفِ النص مرة واحدة بقوله: {فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا}، بل عاد فقال بعدها مباشرة: {إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا}.

وهذا التكرار ليس زيادة في العبارة، ولا عودة لفظية بلا قصد، بل هو تثبيت للمعنى في موضع تتعرض فيه النفس للانزلاق. فالقلب حين يكون تحت ضغط العسر لا ينسى الوعد نسياناً معرفياً فقط، بل ينساه نسياناً شعورياً؛ أي قد يعرف الآية، ويحفظها، ويستشهد بها، ولكنه في لحظة الضيق لا يعيشها، ولا يراها، ولا يجد لها مساحة في صدره. فجاء التكرار ليجعل الوعد أرسخ من ضغط اللحظة.

كأن العسر يقول للإنسان مرة بعد مرة: أنا الحقيقة.

فيجيبه الوحي مرة بعد مرة: بل معك يسر.

العسر يكرر نفسه في الواقع، فجاء الوعد مكرراً في السورة.

العسر يطرق القلب بإلحاح، فجاءت الآية بطرق آخر من جهة الرحمة.

العسر يريد أن يستولي على الخيال، فجاء التكرار ليمنعه من احتكار

المشهد.

وهذا من عمق التربية القرآنية؛ فهي لا تخاطب الإنسان كعقل مجرد يسمع المعلومة مرة فيكتفي، بل تخاطبه ككائن يضعف، ويتأثر، ويُمحي أثر اليقين فيه تحت غبار الحياة، فيحتاج إلى إعادة، لا لأن المعنى ناقص، بل لأن القلب محتاج إلى تثبيت.

ولهذا كان التكرار في القرآن كثيرًا ما يكون رحمة، لا حشوًا. إن المعنى العظيم إذا واجه نفسًا مثقلة احتاج أن ينزل عليها أكثر من مرة، حتى يتحول من علم إلى يقين، ومن يقين إلى سكينة، ومن سكينة إلى قدرة على العمل. ليست المشكلة دائمًا في غياب الحقيقة، بل في ضعف استقرارها في القلب.

كم نعرف أن الله رحيم، ثم نجزع كأن الرحمة بعيدة.
ونعرف أن الله كافٍ، ثم نقلق كأن الأمر كله بأيدينا.
ونعرف أن الله لطيف، ثم نفسر كل منع كأنه قسوة.
ونعرف أن مع العسر يسرًا، ثم إذا جاء العسر رأيناه وحده.
لذلك يكرر القرآن.

ولا يكرر ليملاً الفراغ، بل ليحاصر فراغ القلب.
لا يكرر لأن الكلام محتاج إلى دعم، بل لأن الإنسان محتاج إلى إنقاذ.

والتكرار هنا جاء مع اختلاف لطيف في البدء: الأولى سبقت بالفاء: {فَإِنَّ}،
والثانية بدأت بـ {إِنَّ}. الأولى كأنها نتيجة لما سبق من المنن: شرح الصدر،
ووضع الوزر، ورفع الذكر؛ فإذا كان هذا كله قد وقع، فاعلم أن مع العسر

يسرًا. أما الثانية فجاءت تقريرًا مستقلًا، مؤكدًا، قائمًا بذاته، كأنه قانون لا يحتاج بعد ذلك إلى علة قريبة: {إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا}.

الأولى تربط الوعد بتاريخ النعمة.
والثانية تثبت الوعد كقاعدة مطلقة في الوعي.

وهكذا يجمع النص بين الذاكرة واليقين. يقول لك: تذكر ما فعل الله بك، ثم صدق القانون الذي لا يتبدل في طريقه. فليس الأمر مجرد تجربة سابقة، بل سنة ربانية في تربية عباده.

وإذا تأملنا تركيب الآيتين وجدنا أن العسر جاء معرفًا في الموضعين: {الْعُسْرُ}، بينما جاء اليسر منكرًا: {يُسْرًا}. وقد فهم أهل العلم من ذلك معنى مطمئنًا: أن العسر واحد، وأن اليسر متجدد متعدد، حتى اشتهر في المعنى: لن يغلب عسر يسرين. وليس المقصود أن نحول العبارة إلى حساب جامد، بل أن نفقه الإشارة الرحيمة: إن العسر، مهما بدا ضاغطًا، لا يملك أن يستوعب ألطاف الله. هو محدود، واليسر مفتوح.

العسر له صورة قد تتكرر.

أما اليسر فله أبواب لا تُحصر.

قد تعرف وجه العسر الذي أصابك، لكنك لا تعرف وجوه اليسر التي صحبتته أو ستخرج منه. تعرف الفقد، ولا تعرف الحفظ الكامن فيه. تعرف التأخير، ولا تعرف النضج الذي يخلقه. تعرف الضيق، ولا تعرف الدعاء الذي يوقظه. تعرف انكسار القلب، ولا تعرف النور الذي سيدخل من موضع الكسر.

الإنسان يحيط غالبًا باسم العسر، لكنه لا يحيط بأسماء اليسر.

ولهذا كان اليسر نكرة، كأنه يأتيك من حيث لا تضبطه. يسر في القلب، ويسر في العاقبة، ويسر في الأجر، ويسر في النجاة، ويسر في الفهم، ويسر في أن يخرج منك شيء لم يكن ليخرج إلا بالضغط. وربما كان اليسر كله في أن العسر لم يكن أشد مما كان. وهذه نعمة لا ينتبه لها إلا من عرف أن البلاء درجات، وأن الله قد يحجب عن العبد من المصائب ما لا يراه، فيظن أن ما وقع هو كل القسوة، ولا يعلم أنه كان في ستر من قسوة أكبر.

ومن هنا لا يحق للعسر أن يدّعي السيادة الكاملة على حياة المؤمن. لا يحق له أن يقول: أنا وحدي. فالآية كذّبه مرتين. لا يحق له أن يغلق باب الرجاء. ولا أن يختطف تفسير الحياة. ولا أن يجعل الإنسان ينسى ما حوله من نعم. ولا أن يحول الألم إلى عقيدة سوداء في القلب.

العسر حدث.

أما وعد الله فحقيقة.

والحدث يُرى، فيغلب على الحس.

أما الحقيقة فتحتاج إيمانًا وبصيرة، حتى لا يطغى المرئي على الموعود.

وهذه هي معركة الإنسان في الابتلاء: أن لا يجعل ما يراه أقوى مما أخبر الله به. لا بمعنى أن ينكر الواقع، بل أن لا يجعل الواقع الجزئي حاكمًا على الوعد الكلي. يرى العسر بعينه، نعم؛ لكنه يرى اليسر بالوحي. فإن ضعف نظر العين عن اليسر الخفي، استعان بنور الآية.

ومن لم يستعن بالوحي في قراءة ألمه، قرأه بضعفه وحده. والضعف إذا انفرد بالتفسير أفسد الرؤية. يجعل التأخير إهانة، والبلاء خذلانًا، والمنع نسيانًا، والضغط نهاية. أما الوحي فيعيد ترتيب المعنى: قد يكون التأخير إعدادًا، والبلاء تربية، والمنع حفظًا، والضغط ولادة.

لهذا كان التكرار ضروريًا.

لأن النفس لا تخرج من تفسيرها الأول بسهولة. إذا تألمت أسرعت إلى المعنى الأقرب: أنا متروك. أنا مكسور. أنا وحدي. الطريق أغلق. لا شيء ينتظر. فيأتي الوحي ليقطع هذا السيل الداخلي: {فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا . إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا}.

وكأن الآيتين لا تخاطبان الأذن فقط، بل تواجهان ذلك الحوار الخفي الذي يدور داخل الإنسان ساعة الشدة. الحوار الذي لا يسمعه أحد، لكنه قد يهزم صاحبه من الداخل. سورة الشرح تدخل إلى هذا الحوار، وتضع فيه كلمة الله.

وما أعظم أن يكون في داخل الإنسان صوت من القرآن يرد على صوت اليأس.

صوت يقول له حين يضيق: ليس العسر وحده.

وحين يتأخر الفرج: لا تحكم قبل تمام القصة.

وحين يرى الباب مغلقًا: اليسر لا يأتي من باب واحد.

وحين يتعب من تكرار الألم: كرر أنت أيضًا وعد ربك.

وهذا معنى عملي للتكرار: أن نجعل الآية تتكرر في وعينا بقدر ما يتكرر ضغط العسر في حياتنا. لا نقرأها مرة واحدة كعبارة محفوظة، بل نسمح لها أن تصبح إيقاعًا داخليًا. كلما ارتفع صوت الضيق، ارتفع صوتها. وكلما قال الواقع: عسر، قال القلب: معه يسر. وكلما قال الألم: لن ينتهي، قال الإيمان: ليس لك علم بالغيب.

إن اليقين أحيانًا لا يكون فكرة جديدة، بل فكرة صادقة تكررت في القلب حتى تثبتت.

ولذلك نحتاج إلى تكرار الآيات لا لأننا لم نفهمها أول مرة، بل لأننا لم نصحبها بعد. هناك فرق بين أن تفهم المعنى، وأن يتشكل داخلك به. الفهم باب، والتكرار سكن. فكم من معنى دخل العقل ولم يدخل العادة الشعورية، وكم من آية حفظها اللسان وبقي القلب يفتش عنها في ساعة البلاء.

سورة الشرح تريد أن تجعل هذا الوعد ساكنًا، لا زائرًا.

ومن جهة أخرى، فإن تكرار الوعد باليسر بين ذكر المنن السابقة والأمر اللاحق بالنصب يكشف أن العمل القادم يحتاج إلى قلب مطمئن بهذا القانون. فبعد قليل ستقول السورة: {فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ}. ولا يستطيع الإنسان أن يدخل نصبًا جديدًا إذا كان يعتقد أن العسر مطلق، وأن الجهد لا يثمر، وأن الطريق لا يحمل إلا الكلفة. لا بد قبل الأمر بالعمل أن يثبت في قلبه أن اليسر مع العسر. كأن الوعد هنا وقود للنصب، لا مجرد عزاء للمصاب.

وهذا معنى رفيع: الرجاء في القرآن ليس شعورًا منفصلاً عن العمل، بل قوة تدفع إليه. فمن صدق أن مع العسر يسراً لم يقعد. ومن أيقن أن العسر ليس نهاية، استطاع أن يبدأ من جديد. ومن علم أن الله يجعل في الطريق الطافاً، لم ينتظر زوال كل مشقة حتى يتحرك.

أما من لا يرى إلا العسر، فإنه يتعطل. يقول: لا جدوى. وهذا هو أخطر ما يفعله اليأس: لا يوجع القلب فقط، بل يقطع الحركة. يجعل الإنسان جالساً عند باب مغلق، مع أن أبواباً أخرى ربما كانت تنتظر سعيه. يجعله يحاكم المستقبل إلى لحظة ضيقة. يجعله يظن أن ما لم ينجح أمس لن ينجح أبداً. والآية تنقض هذا كله.

{إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا} ليست فقط وعداً بالفرج، بل منع من الاستقالة. فإذا كان اليسر مع العسر، فقم. وإذا كان العسر لا ينفرد، فامض. وإذا كان الله قد جعل للضيق صحبة من اللطف، فلا تجعل الضيق عذراً لترك الطريق. ولهذا جاء بعدها: {فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ}.

أي لا تكتف بأَنْ ترتاح إلى الوعد؛ اجعله طاقة للقيام. الوعد الذي لا ينهض بك لم يدخل بعد إلى موضعه الصحيح. اليسر ليس فكرة لتزيين الألم، بل قوة لتجاوزه والعمل داخله.

إن بعض الناس يسيئون فهم المواساة، فيجعلونها بديلاً عن النهوض. يريدون من الآيات أن تهددهم فقط، لا أن تبعثهم. أما سورة الشرح فتواسي لتكلف،

وتخفف لتدفع، وتعد باليسر لتأمر بالنصب. إنها لا تترك الإنسان مستلقيًا على فراش الطمأنينة، بل تقيمه منها.

وهنا يظهر الفرق بين الرحمة الرخوة والرحمة القرآنية. الرحمة الرخوة تقول لك: لقد تعبت، إذن توقف. أما الرحمة القرآنية فتقول: لقد تعبت، والله يعلم، ومع العسر يسر، فإذا فرغت فانصب. إنها لا تحتقر تعبك، لكنها لا تسمح له أن يصير قبرك.

وهذا أليق بالإنسان المؤمن. لأنه لم يُخلق ليكون أسير وجعه، ولا ليحوّل كل بلاء إلى نهاية، بل خلق ليعبد الله في التحولات كلها: في الشرح، والوضع، والرفع، والعسر، واليسر، والفراغ، والنصب، والرغبة.

وقد يكون التكرار في الآيتين أيضًا حماية من نوعين من اليأس: اليأس عند وقوع العسر، واليأس عند امتداده. ففي أول الاصطدام بالعسر يحتاج القلب إلى الوعد الأول. فإذا طال العسر، وبدأت النفس تقول: سمعت الوعد، ولكن البلاء لم ينكشف، جاء الوعد الثاني. كأنه يقول: حتى مع الامتداد، لا يتغير القانون. حتى إذا تكرر ضغط العسر، فتذكر أن اليسر معه لا يزال حاضرًا بحكمة الله.

فالآية الأولى للصدمة.

والثانية للامتداد.

الأولى تمنع الانهيار عند البداية.

والثانية تمنع التآكل مع الزمن.

وهذا من فقه القرآن بطبيعة النفس. فالإنسان قد يثبت في أول البلاء بما عنده من حماسة ويقين، ثم يضعف حين يطول الطريق. ليست المشكلة دائماً في الضربة الأولى، بل في التكرار، في الانتظار، في الأيام المتشابهة، في طول الصبر. لذلك احتاج الوعد أن يتكرر ليصاحب الزمن، لا اللحظة فقط.

إن العسر حين يطول يحاول أن يقنع الإنسان بأنه صار قدره النهائي. وهنا تأتي الآية الثانية: {إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا}. أي لا تجعل طول العسر دليلاً على غياب اليسر. فقد يكون اليسر يعمل ببطء في الداخل. وقد يكون الله يربيك زمناً أطول لأن المهمة القادمة أثقل. وقد يكون التأخير جزءاً من التكوين، لا علامة على الإهمال.

كل نضج يحتاج زمناً.

وبعض القلوب لا تنفتح من أول طريقة.

وبعض البصائر لا تولد إلا بعد طول صحبة للعسر.

وهذا لا يعني أن يتمنى الإنسان طول البلاء، بل أن لا يسيء الظن إذا طال. يسأل الله العافية والفرج، ولكنه لا يجعل التأخير برهاناً ضد الرحمة.

ومن يتأمل حياة الأنبياء يرى أن العسر لم يكن لحظة خاطفة دائماً. نوح عليه السلام لبث في قومه عمراً طويلاً يدعو. ويعقوب عليه السلام طال حزنه على يوسف. ويوسف عليه السلام مر بالجب والرق والفتنة والسجن قبل التمكين. وموسى عليه السلام خرج خائفاً، ثم عاد إلى فرعون برسالة ثقيلة. ونبينا ﷺ واجه من الأذى ما واجه قبل الفتح والتمكين.

فلو كان طول العسر دليل خذلان، لما كان هذا طريق المصطفين. لكنه في ميزان الوحي طريق تربية واصطفاء ورفعة، لمن قام فيه بحق العبودية.

ومن هنا يكون التكرار درساً في الصبر الطويل. لا يكفي أن تؤمن باليسر ساعة، بل أن تبقى مؤمناً به إذا تأخر ظهوره. لا يكفي أن تقول: مع العسر يسر، في يوم واحد؛ بل أن تقولها بعد شهر، وبعد عام، وبعدها يتغير وجهك من التعب، وبعدها يمل الناس قصتك، وبعدها تسأم أنت من تكرار الدعاء، ثم لا تزال تقولها لأن الله قالها.

هذا هو اليقين الذي لا يعيش على المزاج.

اليقين ليس نشوة عابرة.

إنه إقامة طويلة تحت وعد الله.

والتكرار في السورة يربينا على هذه الإقامة. كأن الآية الأولى تغرس الوعد، والثانية تسقيه. الأولى تقول: صدق. والثانية تقول: اثبت على التصديق. الأولى تفتح نافذة. والثانية تمنع الريح أن تغلقها.

ومما يزيد المعنى جمالاً أن السورة بعد هذا التكرار لا تقول: فإذا جاء اليسر فاسترح. بل تقول: {فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ}. وهذا يعني أن اليسر ليس نهاية الجهد، بل قد يكون بداية تكليف جديد. فالإنسان يظن أن اليسر غاية الطريق، لكن السورة تجعله زاداً في الطريق. اليسر يأتي مع العسر ليمنع الانكسار، ثم يدفعك إلى نصب أعلى.

وهذا هو الفارق بين من يبحث عن اليسر ليتوقف، ومن يتلقاه ليشكر بالعمل.

إن الله إذا يسر لك بعد عسر، فلا تسأل فقط: ماذا أخذت؟ بل اسأل: ماذا ينبغي أن أفعل الآن؟ إذا فتح صدرك، فبماذا ستملؤه؟ إذا وضع وزرك، فإلى أين ستمضي بظهرك الخفيف؟ إذا رفع ذكرك، فهل ستجعله للحق أم لنفسك؟ إذا رأيت اليسر، فهل ستنام أم تنصب؟ إذا فرغت، فهل ستتبع الفراغ أم ترغب إلى ربك؟

بهذا المعنى لا تكون سورة الشرح سورة فرج فقط، بل سورة مسؤولية بعد الفرج.

والتكرار يهيئ لهذه المسؤولية. لأنه لا يكفي أن يدخل العبد العمل من باب الحماس؛ يحتاج أن يدخل من باب اليقين. الحماس ينطفئ عند أول عسر، أما اليقين الذي تكرر في القلب فيبقى. الحماس يحب البدايات، أما اليقين يصبر على الامتداد. الحماس يريد يسرًا ظاهرًا سريعًا، أما اليقين يرى اليسر المصاحب ولو خفي.

ولذلك كان أصحاب الرسالات لا يعيشون على الحماس وحده، بل على الوعد. والوعد إذا تكرر في القلب صار صبرًا. والصبر إذا صدق صار عملاً. والعمل إذا خلص صار رغبة إلى الله.

وهكذا تنسج السورة خيوطها المتين.

ومن اللطيف أن الآيتين لا تحددان نوع العسر. لم تقل: مع عسر الفقر يسر، أو مع عسر الدعوة يسر، أو مع عسر الحزن يسر. تركت العسر عامًا ليجد كل عبد مكانه في الآية. كل من دخل عسرًا وجد أن الآية تخاطبه بقدر ما

يليق به، دون أن ينزل مقامها الخاص عن خطاب النبي ﷺ. فالمعنى في أصله متصل بسياق تكريمه وتربيته، ولكنه يفتح للأمة بابًا من الهداية.

كل صاحب عسر يستطيع أن يقف هنا.

الفقير، والمظلوم، والمريض، والداعية، والكاتب، والمربي، والغريب، والمبتلى بانتظار طويل، ومن يحمل مشروعا لا يفهمه الناس، ومن يقاوم ضعف نفسه.

كلهم يسمعون: {إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا}.

لكن كل واحد ينبغي أن يسمعها بأدبها. لا يسمعها كضمان لتحقيق كل أمنيته، بل كضمان أن رحمة الله لا تغيب عن عسره، وأن الطريق لا يفسره الألم وحده، وأن الله يخلق من الضيق أبوابا لا يعلمها العبد.

وهذا السماع المؤدب يحمي من خيبة التوقعات. لأن بعض الناس يتعاملون مع الآية كأنها وعد بالفرج الفوري وفق تصوراتهم، فإذا تأخر ما أرادوا، ضعفوا. أما من فقهها علم أن اليسر حق، لكن صورته وتوقيته وحكمته إلى الله. والعبد مأمور أن يثق، ويدعو، ويعمل، ويصبر، ويرى الألفاظ ما استطاع، ولا يجعل جهله بتفاصيل التدبير حجة على التدبير.

إننا لا نعرف كل اليسر الذي معنا.

ولو كشف لنا بعض ما صرف الله عنا، لبكينا شكرا على أشياء بكينا يوما لأنها لم تأت.

هذه الحقيقة لا يدركها الإنسان في كل لحظة، لكنها تكفي لتأديب القلب. فحين لا ترى إلا العسر، قل لنفسك: رؤيتي ناقصة. حين لا أجد اليسر، لا يعني أنه غير موجود. حين أضيق، لا يعني أن الرحمة ضاقت. حين أتأخر، لا يعني أن الله تركني. حين أضعف، لا يعني أن الوعد سقط.

هذه الجمل ليست تهوينًا من الألم، بل حماية للعقيدة من أن تختطفها اللحظة. والتكرار في سورة الشرح يقوم بهذه الحماية. إنه يضع بين القلب واليأس حاجزين من نور. الأول: {فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا}. الثاني: {إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا}. فإذا حاول اليأس أن يتسلل، اصطدم بالوعد. وإذا حاول العسر أن يزعم أنه وحده، شهدت الآيتان ضده.

ومن عاش مع هذه الآية لم يعد يطلب حياة بلا عسر، بل قلبًا لا يكذب باليسر. وهذه منزلة أعلى. لأن الحياة بلا عسر ليست من سنن الدنيا. أما القلب الذي يرى اليسر مع العسر فهو قلب نجح في الامتحان الأعظم: امتحان الرؤية.

إن أخطر ما في البلاء ليس الوجد وحده، بل أن يفسد جهاز الرؤية. فإذا فسد، صار الإنسان يرى كل شيء من خلال الجرح. يرى الناس أعداء، والمستقبل ظلامًا، والنعم قليلة، والله بعيدًا، والعمل بلا جدوى. فإذا جاءت الآية، أعادت تصحيح العدسة: ليس الأمر كذلك. هناك عسر، نعم. لكنه ليس وحده. معه يسر. كررها حتى ترى.

وهكذا يصبح التكرار علاجًا للرؤية.

وبعد هذا كله نستطيع أن نفهم لماذا جاءت الآيتان في قلب السورة، لا في أولها ولا آخرها. لأنهما مركز التوازن. أول السورة منن ماضية أو حاضرة: شرح، وضع، رفع. وآخرها تكليف ووجهة: نصب ورغبة. وبين المنن والتكليف يقف الوعد المتكرر باليسر؛ لأنه الجسر بين ما فعله الله بك وما يطلبه منك.

ما فعله الله بك يمنعك من نسيان فضله.
والوعد باليسر يمنعك من اليأس.
والأمر بالنصب يمنعك من الكسل.
والرغبة إلى الله تمنعك من الضياع في العمل.

هذا هو البناء الكامل.

فإذا قرأت: {إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا}، فلا تقرأها منفصلة. اقرأها وأنت تتذكر أول السورة وآخرها. الذي جعل مع العسر يسرًا هو الذي شرح صدرك، ووضع وزرك، ورفع ذكرك، وهو الذي سيدعوك بعد لحظة إلى النصب، ثم يأمرك أن ترغب إليه. فاليسر ليس مجرد هدية في الطريق، بل جزء من تربية تقودك إلى العمل والعبودية.

ولذلك لا يخرج الإنسان من هذا التكرار مسترخيًا، بل ثابتًا. لا يقول: ما دام مع العسر يسر، فسأنتظر بلا عمل. بل يقول: ما دام مع العسر يسر، فلن أنهزم، وسأمضي، فإذا فرغت نصبت، وإلى ربي رغبت.

هذا هو الفهم الصحيح للوعد: أن يصير قوة لا مخدرًا.

وما أحوج القلب إلى هذا القانون في كل مرحلة. حين يبدأ مشروعًا، وحين يفشل. حين يكتب، وحين لا يجد أثرًا. حين يدعو، وحين يُعرض عنه. حين يحب الخير للناس، فيؤذيه الناس. حين يحمل أمانة، فيشعر أنها أكبر منه. حين يرى الطريق أطول من عمره. عندها يسمع السورة تقول له مرتين: لا تجعل العسر خاتمة فكري. لا تجعله رب المشهد. لا تنسَ اليسر.

ثم لا تقف.

انهض.

الفصل العاشر

اليسر المصاحب لا المؤجل: قراءة في كلمة {مَعَ}

أقصر الكلمات قد تكون أوسعها أثرًا. وفي سورة الشرح تقف كلمة {مَعَ} كأنها نافذة صغيرة يدخل منها ضوء كبير. لم يقل النص: بعد العسر يسرًا، مع أن بعد العسر يسرًا من جهة العاقبة والسنن. لكنه اختار هنا: {مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا}، ليعلم القلب أن اليسر ليس دائمًا ضيقًا متأخرًا يأتي بعد انتهاء الألم، بل قد يكون رقيقًا خفيًا يمشي داخل الألم نفسه.

وهذه نقلة هائلة في فهم الابتلاء.

فمن ينتظر اليسر بعد العسر فقط قد يفقد القدرة على الرؤية أثناء العسر. سيؤجل كل طمأنينته إلى لحظة لا يعرف متى تأتي. سيقول: حين ينتهي هذا البلاء سأرى رحمة الله. حين يفتح الباب سأطمئن. حين يتغير الواقع سأشكر. أما سورة الشرح فتقول له: لا تؤجل رؤية اللطف كلها إلى ما بعد. افتح عينك الآن. هناك يسر معك، وإن لم يكن هو اليسر الذي طلبته.

إن المعية هنا تربي القلب على التقاط الألفاف الصغيرة التي تصاحب الشدة، تلك التي لا تلغي الألم، لكنها تمنعه من أن يصير مطلقًا. فالإنسان لا يعيش في العسر المجرد أبدًا؛ يعيش في عسر محاط ببقايا عافية، وستر، ووقت، وقدرة، وناس، ومعنى، وفرصة، ودعاء، ورب يعلم حاله. لكن النفس إذا

غلب عليها الضيق جمعت بصرها كله في موضع الوجع، حتى صارت كأنها لا تملك شيئاً غيره.

كأن من أصيب في إصبع ظن أن جسده كله صار جرحاً.

والقرآن لا ينكر وجع الإصبع، لكنه يعيد إليه رؤية الجسد كله. لا يقول: لا تتألم، بل يقول: لا تختصر حياتك في الألم. لا يجعل الوجع مركز الكون. لا تسمح للعسر أن يمحو كل وجوه اليسر المصاحبة له.

كم من مبتلى يملك في عسره ما يحسده عليه مبتلى آخر.

وكم من محروم في باب مفتوح له أبواب كثيرة.

وكم من متأخر في مطلب محفوظ من شر لم يكن يراه.

وكم من حزين بقي له من العافية والدين والستر ما لو فقدته لعرف أن عسره الأول كان محاطاً بيسر عظيم.

لكن الإنسان لا يرى النعمة إلا حين تهتز. ولهذا كان من فقه كلمة {مَعَ} أن ندرّب القلب على رؤية الموجود لا البكاء على المفقود وحده. ليس لأن المفقود لا يوجع، بل لأن الاقتصار عليه يظلم الحقيقة. والحقيقة أن الله لا يترك عبده في عسر صافٍ من كل رحمة.

المعينة تعني أن الرحمة ليست خارج المشهد.

أن اليسر ليس غائباً بالكامل.

أن الله لم يجعل البلاء كتلة مغلقة.

وقد يكون اليسر المصاحب في صورة قدرة على الاحتمال. وهذه نعمة قلما ينتبه لها الإنسان. يسأل: متى يزول البلاء؟ ولا يسأل: من الذي جعلني أحتمله إلى الآن؟ يتعجب من طول العسر، ولا يتعجب من بقاءه واقفًا رغم طوله. ولو وُكِّلَ إلى نفسه ساعة، لانكسر. لكن هناك مددًا خفيًا، يرفده دون أن يراه، كجذر تحت التراب يمد الشجرة بما لا يظهر على سطحها.

هذا يسر.

وقد يكون اليسر المصاحب في أن الله يمنع عنك الانهيار الكامل. أنت متعب، لكنك لم تفقد إيمانك. حزين، لكنك لا تزال تصلي. مضغوط، لكنك لا تزال تعرف الحلال والحرام. مكسور من جهة، لكنك لم تتحول إلى حاقد على الله وخلقه. هذه ليست أمورًا صغيرة. هذا يسر عظيم داخل العسر.

فكم من عسر لم يهلكنا لأن الله جعل معه بقايا نور.
وكم من ضيق لم يخنقنا لأن في الصدر نافذة لم تغلق.
وكم من خوف لم يبتلعنا لأن آية كانت تقف بيننا وبينه.

وقد يكون اليسر المصاحب في صحبة صالحة، أو كلمة حق، أو كتاب، أو سجدة، أو ذاكرة نعمة، أو طفل يبتسم في بيت متعب، أو رزق قليل لكنه يكفي اليوم، أو عدو لا يملك كل ما يريد، أو مرض لم يبلغ ما كان يمكن أن يبلغ، أو خسارة كشفت زيف طريق، أو تأخر كشف سطحية رغبة.

اليسر لا يأتي دائمًا في هيئة احتفال.
أحيانًا يأتي في هيئة حد أدنى من النجاة.

في هيئة شيء لم يحدث.

في هيئة شر صرف.

في هيئة باب أغلق ليحفظك من هالوية.

والناس عادة لا يشكرون على الشرور التي لم تقع؛ لأنهم لا يعرفونها. لكن الإيمان يعلمنا أن ما لم يقع من البلاء نعمة أيضاً. فإذا أصابك عسر، فلا تظن أنك رأيت كل البلاء. ربما كان هذا العسر نفسه حاجزاً دون عسر أكبر. ربما كان منعه لك من شيء تريده صرفاً لك عن شيء كان سيفسد دينك أو قلبك أو مستقبلك.

وهذا لا نقطع به في كل واقعة على وجه التعيين، لأن الغيب لله، ولكننا نعلم أصلاً كلياً: أن تدبير الله أوسع من علمنا، وأن لطفه قد يكون فيما أعطى وفيما منع، وفيما عجل وفيما أخر.

لذلك لا يليق بالمؤمن أن يجعل جهله بحكمة البلاء دليلاً على غياب الحكمة. عدم رؤيتك للباب لا يعني عدم وجوده. وعدم فهمك لليسر لا يعني أنه غير مصاحب. قد تكون المشكلة في ضيق البصر، لا في غياب اللطف.

ومن هنا كانت كلمة {مَعَ} دعوة إلى يقظة داخلية. اسأل نفسك في كل عسر: ما اليسر الذي معي؟ لا على طريقة الإنكار، بل على طريقة البحث عن آثار الرحمة. ما الذي لا يزال قائماً؟ ما الذي تعلمته؟ ما الذي تُجيت منه؟ ما الذي بقي في قلبي من نور؟ ما الذي صار أوضح؟ ما الوهم الذي خرج؟ ما الباب الذي فتح من حيث ظننته إغلاقاً؟

هذه الأسئلة لا تفسر كل شيء، لكنها تمنع العسر من أن يصير أعمى.

إن الإنسان إذا لم يبحث عن اليسر المصاحب، فسيرى العسر وحده. وإذا رآه وحده، ضخمه. وإذا ضخمه، خاف. وإذا خاف، عجز. وإذا عجز، توقف. ولذلك جاءت الآية قبل الأمر بالنصب؛ لأن من لا يرى اليسر المصاحب لن يقدر على نصب جديد.

الرؤية تسبق الحركة.

لا يتحرك من يظن أن الجدار كامل. يتحرك من رأى شقًا في الجدار، أو صدق أن وراءه بابًا. وكلمة {مَعَ} هي ذلك الشق في جدار العسر. ليست إزالة فورية للجدار، لكنها منع له من ادعاء الكمال.

ومن ألطف ما تهبه هذه الكلمة أنها تنقل القلب من انتظار الفرج إلى صحبة الله في انتظار الفرج. فالمنتظر الذي لا يرى إلا النهاية يتعذب بالوقت، أما الذي يرى ألطف الطريق فيتعلم من الوقت. لا يزال يريد الفرج، ويدعو به، ويأخذ بأسبابه، لكنه لا يجعل الأيام التي تسبقه فراغًا مظلمًا. يعرف أن الله يربيه في المسافة، لا عند الوصول فقط.

كم من الناس يريدون ثمرة الطريق، ولا ينتبهون إلى أن الطريق نفسه يصنعهم.

يريدون نهاية العسر، ولا يرون أن اليسر كان يعمل فيهم أثناء العسر. يريدون لحظة الفتح، ولا يرون أن الله كان يهيئهم لها ببطء.

إن اليسر المصاحب قد يكون إعدادًا لليسر اللاحق. لو جاء الفرج قبل نضج القلب، ربما أفسده. ولو فتح الباب قبل أن يشتد العود، ربما كسره الهواء. ولو رُفِعَ الذكر قبل شرح الصدر، ربما اختنق صاحبه. لذلك قد يؤخر الله بعض اليسر الظاهر حتى يكتمل اليسر الباطن.

وهذا معنى يحتاج إلى أدب كبير مع الله. فالعبد بطبعه يحب التعجيل، لكن الله يربيه على التكوين. والعبد يريد الخروج، والله قد يريد أولاً أن يجعل خروجه نافعاً. والعبد يريد أن يتخلص من الضيق، والله قد يخلق في الضيق بصيرة لا تولد في السعة.

وليس في هذا دعوة إلى حب البلاء، بل إلى عدم إهدار معناه حين يقع.

فالمؤمن يسأل الله العافية، فإذا ابتلي سأل الله الفرج، فإذا تأخر الفرج فتنش عن اليسر المصاحب، حتى لا تضيع عليه أيام البلاء بلا هداية.

وهذا هو الفرق بين من يخرج من العسر كما دخل، ومن يخرج منه إنساناً آخر. الأول انتظر النهاية فقط. والثاني قرأ المعية. الأول قال: متى ينتهي؟ والثاني قال مع ذلك: ماذا يعلمني الله؟ الأول كان أسير الزمن، والثاني صار تلميذاً في مدرسة اللطف.

وقد يكون اليسر المصاحب في تعرية التعلقات. قبل العسر، كان الإنسان يظن أن قلبه حر، فإذا به متعلق برأي الناس، أو بشيء من الدنيا، أو بصورة عن نفسه، أو بعلاقة، أو بمكانة. جاء العسر لا ليهلكه، بل ليكشف له عبوديته

الخفية. وهذا الكشف موجه، لكنه يسر؛ لأن من عرف قيده أمكنه أن يتحرر منه.

من أشد أنواع الرحمة أن يريك الله ما كان يستعبدك وأنت تظنه جزءًا منك. وقد يكون اليسر المصاحب في أن العسر يعيد ترتيب الأولويات. في الرخاء تتزاحم الأشياء. يصبح الهامشي كبيرًا، والكمالي ضروريًا، ورأي الناس قدرًا، والتنافس معنى، والنجاح الظاهر مقياسًا. فإذا جاء العسر، سقطت الزوائد. عرفت أن الصحة أكبر مما كنت تظن، وأن السكينة أغلى من المظهر، وأن ركعة صادقة قد تكون أوسع من ضجيج طويل، وأن إنسانًا واحدًا صادقًا خير من جمهور عابر.

هذا يسر معرفي وروحي. ليس يسرًا ناعمًا، لكنه يسر حقيقي.

ومن اليسر المصاحب كذلك أن العسر يكشف لك الله من جهة لم تكن تعرفها. في الرخاء تعرف اسم الرزاق مثلاً حين يأتيك الرزق، لكن في الضيق تعرف اللطيف حين يأتيك ما يكفيك من حيث لا تدري. تعرف الجبار حين يجبر كسرًا لم يستطع أحد لمسه. تعرف الولي حين يتولاك وقد تخفف الناس. تعرف الكافي حين تسقط الأسباب التي كنت تعتمد عليها. تعرف الفتاح حين يفتح بابًا بعد أن استنفدت الحسابات.

والله سبحانه لا يشبه خلقه، ولا تدرك ذاته العقول، لكن عباده يعرفونه بما عرّف به نفسه من أسمائه وآثار رحمته وحكمته فيهم. فإذا جاء العسر، فتح لهم من معرفة أسمائه ما لم يكونوا يذوقونه في الرخاء.

وهذا من أعظم اليسر: أن تخرج من البلاء بمعرفة أعمق بربك.

لأن البلاء الذي يقربك من الله ليس خسارة مطلقة، ولو كان موجعًا. والخسارة الحقيقية أن يخرج الإنسان من العافية بعيدًا عن الله، أو يخرج من البلاء ساخطًا لا يرى إلا نفسه.

كلمة {مَعَ} تحفظ القلب من هذا السخط. تقول له: فتش عن الله في الطريق، لا عند نهايته فقط. فتش عن رحمته في التفاصيل. فتش عن يسرك الذي لم تسمه بعد. لا تدع العسر يفرض عليك قاموسه كله.

وهنا نحتاج إلى دقة: لا ينبغي أن نقول لكل متألم ببرود: ابحث عن اليسر، كأننا نطالبه بأن يفرح بجرحه. بل نقولها لأنفسنا أولاً، ثم نقولها للناس بلطف، بعد اعتراف صادق بثقل ما يعانون. فالمعية القرآنية لا تصلح أن تكون أداة لإسكات الموجهين، بل بابًا لفتح الرجاء لهم. ومن استعمل الآية ليحتقر الألم، فقد خالف روحها؛ لأنها سمت العسر عسرًا، ثم كشفت اليسر معه.

إنها لا تمحو دمة، لكنها تضع فيها ضوءًا.

لا تنكر جرحًا، لكنها تمنعه من التعفن.

لا تلغي الانتظار، لكنها تجعله عامرًا بالمعنى.

والإنسان حين يتربى على هذا، يصير أقدر على مواساة غيره. لا يقول للمتألم: ألمك لا شيء. بل يقول: ألمك عسر، والله يعلم. لكن لا تسمح له أن يقنعك بأنه وحده. معه يسر، ولو لم تره الآن. سأجلس معك لنبحث عنه، لا لأفرضه عليك فرضًا. سأذكرك بالله دون أن أستهيئ بوجعك.

هذه المواساة الناضجة ثمرة من ثمار سورة الشرح.

ومن زاوية أخرى، فإن كلمة {مَعَ} تجعل اليسر أقرب مما نظن. فالبعد النفسي بين الإنسان والفرج قد يكون قاتلاً. حين يظن أن اليسر في مكان بعيد جداً، يتعب. أما حين يعلم أن شيئاً من اليسر معه، يبدأ في التنفس. قد لا يرى الفجر كاملاً، لكن شعاعاً واحداً يكفيهِ ليعرف أن الليل ليس مطلقاً.

ولهذا كان أثر الآية في النفوس عجيبة؛ لأنها لا تقول فقط: سيأتي، بل تقول: معه. وهذا القرب يبدد وحشة العسر. أنت لست في صحراء خالية حتى تصل إلى الواحة. هناك ماء قليل معك. وهناك ظل صغير. وهناك دليل في الطريق. وهناك رب يدبرك.

والعبد إذا عرف أن معه شيئاً من اليسر، أحسن استعماله. فقد يكون معه وقت، فيستثمره. أو قدرة قليلة، فيبذلها. أو علم، فيعمل به. أو علاقة صادقة، فيحفظها. أو فرصة إصلاح، فيبادر إليها. أما إذا رأى نفسه محروماً مطلقاً، أهدر ما معه، وزاد عسره بسوء استعمال بقايا اليسر.

وهذا من أخطر أخطاء المبتلى: أن يضع اليسر المصاحب لأنه منشغل بالعسر المسيطر. يترك الباب الصغير لأنه يبكي أمام الباب الكبير. يهمل النعمة الباقية لأنه مأسور بالنعمة الغائبة. يفرط في القوة القليلة لأنه يحزن على القوة الكثيرة. ولو أحسن استعمال اليسر الذي معه، لصار ذلك اليسر طريقاً إلى يسر أكبر.

إذن كلمة {مَعَ} ليست فقط وعدًا، بل تكليف ضمني: ابحث عن اليسر الذي معك، ثم اعمل به.

ولهذا سيأتي: {فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ}. فالعمل لا ينتظر اكتمال كل اليسر. قد تعمل باليسر القليل داخل العسر الكبير. وقد تنصب بما بقي لك من طاقة، لا بما تتمنى من طاقة. وقد تبدأ من فتحة صغيرة، لا من باب واسع.

إن انتظار الظروف المثالية صورة خفية من الاستسلام. أما سورة الشرح فتقول: ما دام مع العسر يسر، فهناك ما يمكن أن تبدأ منه. ليس كل شيء مغلقًا. ليس كل شيء مؤجلًا. ليس كل شيء مرهونًا بزوال العسر كاملاً.

ابدأ من اليسر المصاحب.

ابدأ من الدعاء.

من الكلمة.

من التوبة.

من إصلاح عادة.

من طلب علم.

من صبر يوم.

من عمل صغير.

من حفظ قلبك من السخط.

من خطوة في الطريق ولو كانت محدودة.

فاليسر الذي معك قد لا يكفي لإنهاء العسر، لكنه يكفي لمنعك من السقوط فيه.

وهذا معنى جليل. ليس كل يسر وظيفته أن يزيل العسر؛ بعض اليسر وظيفته أن يحفظك أثناءه. كما أن المصباح لا يلغي الليل، لكنه يمنعك من الاصطدام. وكما أن الجرعة لا تنهي المرض فوراً، لكنها تقاومه. وكما أن اليد التي تمسك لا ترفعك دائماً من الحفرة لحظتها، لكنها تمنعك من الغرق أكثر.

كلمة {مَعَ} تعلمنا هذا الصبر العملي.

إنها لا تقول: سيصير كل شيء كما تحب الآن. بل تقول: ليس كل شيء ضدك. في قلب العسر شيء معك. رحمة معك. معنى معك. فرصة معك. مدد معك. فاستخرج هذا اليسر، ولا تدفن نفسك تحت العنوان الكبير: أنا في عسر.

ومن عاش بهذا الفهم صار أكثر عدلاً مع حياته. لا يزيغ الواقع، ولا يسوده. لا يقول: كل شيء جميل، ولا يقول: كل شيء خراب. يقول: هناك عسر، ومعه يسر. وهذه هي العبارة الأصدق. لأنها تحفظ الألم والنعمة معاً.

والصدق مع الواقع لا يكون برؤية الجرح فقط. الصدق الكامل أن ترى الجرح واللفظ الذي يمنع الجرح من أن يصير موتاً. ترى الفقد والباقي. ترى الضيق والباب. ترى العسر واليسر.

وهذا هو النظر القرآني المتوازن.

إن كلمة {مَعَ} في سورة الشرح ليست حرفاً صغيراً في جملة، بل ميزان حياة. من فهمها لم يعد يؤجل كل إيمانه إلى ما بعد الفرج. صار يمارس الإيمان أثناء العسر. يشكر وهو ينتظر، ويدعو وهو يتعب، ويعمل وهو ناقص

الطاقة، ويرى النعمة وهي متخفية، ويصدق أن الله لا يترك عبده في قسوة صافية من اللطف.

وبهذا تنتقل النفس من سؤال واحد: متى يزول العسر؟ إلى سؤالين: متى يزول؟ وما اليسر الذي جعله الله معه حتى يزول؟

الأول سؤال طبيعي.

والثاني سؤال رباني يربي القلب.

فإذا جمع العبد بينهما، سلم من القنوط ومن الغفلة. دعا بالفرج، وبحث عن اليسر الحاضر. طلب كشف البلاء، وشكر اللطف المصاحب. اعترف بالعسر، ولم يكفر بما معه من رحمة.

وهذا هو النضج الذي تصنعه سورة الشرح.

ولذلك لا ينبغي أن نمر على كلمة {مَعَ} سريعًا. إنها قلب الوعد. لو قيل: بعد العسر يسر، لانتظر القلب آخر الطريق. أما حين قيل: مع العسر يسر، فقد دخل الضوء إلى منتصف الطريق. صار العبد يستطيع أن يمشي، لا لأنه خرج من العسر كله، بل لأنه لم يعد يراه ظلامًا خالصًا.

وهكذا يكون اليسر المصاحب أول تدريب على الفرج. فإذا أحسنت رؤية اليسر الصغير داخل العسر، كنت أقدر على شكر اليسر الكبير إذا جاء بعده. أما من لا يرى ألطاف الله في الشدة، فقد لا يشكرها في الرخاء؛ لأن عينه لم تتدرب على التقاط النعمة.

فالنعمة تحتاج عيًّا.

وكلمة {مَعَ} تصنع هذه العين.

إنها تعلمك أن تسأل في كل يوم ثقيل: ما الذي بقي؟ ما الذي حُفظ؟ ما الذي
فُتح؟ ما الذي صار أصفى؟ أين كان الله يلطّف بي وأنا لا أنتبه؟ ثم تمضي،
لا متوهمًا أن العسر سهل، بل موقنًا أنه ليس وحده.

ومن هنا تنبت القوة الهادئة.

ليست قوة من لا يتألم.

بل قوة من يرى اليسر وهو يتألم.

ليست قوة من خرج من العسر.

بل قوة من لم يسمح للعسر أن يحجبه عن اليسر.

ليست قوة الصخب.

بل قوة القلب الذي قرأ كلمة واحدة قراءة صحيحة: {مَعَ}.

الفصل الحادي عشر

العسر الواحد واليسران: معنى الرجاء المنضبط

من أرقّ ما فهم من تكرار قوله تعالى: {فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا . إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا} أن العسر جاء معرّفًا في الموضعين، واليسر جاء منكرًا في الموضعين؛ فكان في ذلك بشارة واسعة، لا على طريقة الحساب الجاف، بل على طريقة الوعد الذي يفتح القلب: العسر، وإن بدا واحدًا مسيطرًا، لا يغلب ألطاف الله المتعددة.

العسر له اسم واضح في تجربتنا، نعرفه، نشير إليه.
نقول: هذا هو. مرض. فقد. فقر. خذلان. انتظار. ضيق. غربة. حمل ثقيل.

أما اليسر فكثيرًا ما يأتي بلا لافتة. لا يعلن نفسه كما يعلن العسر. لا يصرخ فينا كما يصرخ الألم. يمر هادئًا، رقيقًا، خفيًا، وقد لا نلتفت إليه إلا بعد زمن. ولهذا كان الإنسان أسرع إلى تسمية عسره منه إلى تسمية يسره. يعرف ما أتعبه، ولا يعرف دائمًا ما أنقذه. يعرف الباب الذي أغلق، ولا يعرف الأبواب التي حُفظت من الانغلاق. يعرف ما فاتته، ولا يعرف ما صُرف عنه.

من هنا يكون الرجاء في سورة الشرح رجاءً منضبطًا؛ لأنه لا يقوم على إنكار العسر، ولا على تخدير النفس، ولا على وعد مصنوع من الخيال، بل

يقوم على نص قرآني محكم: العسر موجود، لكنه ليس منفردًا. اليسر معه، ويتكرر الوعد به، وتتنوع وجوهه.

والرجاء المنضبط ليس أن تقول للوجع: لست وجعًا.

بل أن تقول له: لست وحدك.

ليس أن تسمي الشدة عافية.

بل أن ترى العافية التي لم تزل باقية معها.

ليس أن تكذب على نفسك باسم التفاؤل.

بل أن تصدق الله أكثر مما تصدق هلعك.

وهذه مسافة دقيقة بين الرجاء والوهم.

الوهم يطلب من الإنسان أن يغمض عينيه عن الواقع، أما الرجاء القرآني فيطلب منه أن يفتح عينيه أكثر. يراها كلها: يرى العسر، ويرى اليسر، يرى الجرح، ويرى اللطف، يرى ما فُقد، ويرى ما بقي، يرى قسوة الطريق، ويرى يد الله في الطريق. ولذلك كان الرجاء أصدق من التفاؤل الساذج؛ لأنه لا يحتاج إلى تزوير المشهد حتى يبقى حيًا.

الرجاء القرآني يولد في موضع الحقيقة، لا في موضع الهروب منها.

ومن عظمة السورة أنها لم تقل: لا عسر. بل كررت العسر مرتين. لكنها في كل مرة قرنته باليسر. وهذا يعني أن القرآن لا يخاف من الاعتراف بالثقل، لأنه يملك ما هو أعظم من الثقل: الوعد، والمنة، والتوجيه، والرب الذي إليه الرغبة.

أما الخطابات الضعيفة فتخاف من تسمية الألم، لأنها إذا سمتة لم تجد ما تقوله بعد ذلك. فتخفف العبارة، وتبسط الوجد، وتطلب من المتعب أن يتظاهر بالقوة. لكن الوحي يسمى العسر عسرًا، ثم لا يتركه سيدًا على الجملة. يدخل عليه اليسر. بل يكرر دخول اليسر عليه. وهكذا لا يبقى العسر حقيقة مغلقة.

إن الرجاء المنضبط هو أن تقبل وجود العسر دون أن تسلم له القيادة. كأن تقول: نعم، الطريق صعب، لكن صعوبته ليست دليل بطلانه. نعم، قلبي مजوع، لكن وجعه ليس حجة على رحمة الله. نعم، تأخر الفرج، لكن التأخر لا يعني الغياب. نعم، فقدت شيئًا، لكن الله لم يفقدني كل شيء. نعم، ضاق صدري، لكنني أطرق باب من يشرح الصدور.

هذا رجاء رصين.

لا يصرخ.

لا يبالغ.

لا يزخرف المأساة.

لكنه يمنعها من التوحش.

وفي العبارة المشهورة: لن يغلب عسر يسرين، معنى يفتح للإنسان بابًا من الطمأنينة. فالعبد لا يحاصر بقدر ما يتخيل. قد يكون العسر واحدًا في صورته، لكن اليسر يتعدد: يسر في السبب، ويسر في الأجر، ويسر في التخفيف، ويسر في العاقبة، ويسر في الحفظ، ويسر في أن يرزقك الله قلبًا لا ينهار. وكل وجه من هذه الوجوه يخفف قبضة العسر.

العسر يريد أن يكون كامل السيادة.

واليسر يخرق سيادته.

وقد يكون يسران، أو أكثر، محيطين بعسر واحد، لكن عين الخوف لا تراهما. ولذلك تحتاج النفس إلى تدريب إيماني على عدّ الألفاظ كما تعدّ الأوجاع. نحن نحسن عدّ ما كسرنا. نحفظه بالتواريخ، والأسماء، والتفاصيل. لكننا لا نحسن عدّ ما سترنا الله به. لا نورخ للنجاة كما نورخ للجرح. لا نقيم ذاكرة للرحمة كما نقيم ذاكرة للخسارة.

وسورة الشرح تعالج هذا الخلل.

تبدأ بتذكيرك بما فعل الله: شرح، وضع، رفع.

ثم تكرر اليسر.

كانها تقول: لا تجعل ذاكرتك بيتاً للعسر وحده.

إن الذاكرة التي تسكنها الأوجاع وحدها تتحول إلى سجن. أما الذاكرة التي يدخلها الامتنان، فإنها لا تلغي الألم، لكنها تمنعه من أن يعيد تشكيل الشخصية على صورة المرارة. ومن أخطر ما يصنعه العسر إذا لم يُقرأ بالوحي أنه يعيد تسمية الإنسان. يصير الإنسان: أنا الذي خُذلت. أنا الذي فشلت. أنا الذي فقدت. أنا الذي انكسرت. فتتحول الواقعة إلى هوية.

أما الرجاء القرآني فيقول له: أنت عبد الله قبل كل شيء.

وقع عليك عسر، نعم.

لكن مع العسر يسر.

وقد شرح الله، ووضع، ورفع.
فلا تسمح لواقعة أن تصير اسمك الأخير.

هذا الرجاء يعيد الإنسان إلى أصله: عبداً مربوباً، لا جرحاً يمشي على قدمين.
فالجرح جزء من قصته، وليس كل قصته. والعسر فصل من كتابه، وليس
عنوان وجوده. والبلاء طريق تربية، لا تعريف نهائي به.

ومن هنا يكون فهم العسر الواحد واليسرين حماية من اختزال الذات. إذا كان
العسر لا يختزل المشهد، فلا ينبغي أن يختزل الإنسان. وإذا كان اليسر معه،
فهناك فيك شيء لم يهزمه العسر. هناك بقية نور. بقية قدرة. بقية إيمان. بقية
رغبة. بقية باب إلى الله.

والعبد لا يُبعث من جديد إلا من هذه البقية.

لا تنتظر أن تعود كامل الطاقة حتى تبدأ. ابدأ من اليسر الذي بقي معك. من
القدرة الصغيرة. من الإيمان الذي لم ينطفئ. من الصدر الذي يريد أن يُشرح.
من الظهر الذي ينتظر أن يُوضع عنه الحمل. من الذكر الطيب الذي لا يزال
ممكناً. من الرغبة التي تستطيع أن تردها إلى الله.

هذه هي طريقة السورة: لا تتركك أسيراً للمفقود، بل تدلك على الممكن. تقول:
في العسر يسر، فابحث عن موضع الحركة.

والرجاء المنضبط مرتبط بالعمل؛ لذلك لا يتحول إلى استرخاء. فمن قال: لن
يغلب عسر يسرين، ثم نام عن أسباب اليسر، لم يفهم. اليسر وعد، لكنه لا

يلغي السعي. والله يجعل مع العسر يسراً، ثم يقول: {فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ}. أي إن اليسر المصاحب ينبغي أن يدفعك إلى النصب، لا أن يخدرك.

كأن الوحي يقول: هناك يسر يكفيك لتقوم.

ليس بالضرورة يسراً يكفيك لتملك كل شيء، لكنه يكفيك لئلا تستسلم.

يكفيك للدعاء.

للتوبة.

للعمل.

لإصلاح ما تستطيع.

لحفظ قلبك.

للاستمرار في الطريق.

وهذا هو الرجاء المنضبط: رجاء عامل. لا ينتظر الفرج وهو يعطل يديه، ولا يتخذ حسن الظن ستاراً للكسل، ولا يقول: سيأتي اليسر، ثم يهدر اليسر الذي معه. بل يستقبل الوعد كطاقة.

أما الرجاء غير المنضبط فيريد اليسر بلا فقه، وبلا صبر، وبلا أسباب، وبلا عبودية. يريد من الآية أن تضمن له نتائج الخاصة لا هداية قلبه. فإذا لم يقع ما أراه، انقلب على الوعد، مع أنه كان يعبد تصوره لا وعد الله.

ولهذا يجب أن نميز بين الثقة بالله وبين التحكم في صورة الفرج. الثقة أن توقن أن الله لا يترك عبده، وأن مع العسر يسراً، وأن تدبيره أوسع من علمك. أما التحكم فهو أن تطلب من الله أن يجعل اليسر على هيئة واحدة، ثم تضيق إن جاء من غيرها.

سورة الشرح تعلمنا الثقة، لا التحكم.

إنها لا تقول لك: سيأتيك كل ما تريد.

بل تقول: العسر لن ينفرد بك.

وهذا أعمق وأصدق وأنفع.

لأن كل ما تريد قد لا يصلحك. أما ألا ينفرد بك العسر، فهذه رحمة لازمة للسير. قد لا تنال الشيء الذي تخيلته يسراً، لكنك ستنال من ألطاف الله ما تقوم به حجتة عليك، وما يحفظ قلبك إن أحسنت التلقي، وما يفتح لك باباً إلى العبودية.

ومن هنا يكون الرجاء المنضبط متصلاً بالأدب مع الغيب. نحن لا نعرف كيف سيأتي اليسر، ولا متى، ولا بأي مقدار، ولا من أي وجه. نعرف أن الله قال: {مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا}. وهذا يكفيننا لئلا نياس، ولا يكفيننا لنزعم علماً بما لم نعلم. فالعبد بين يقين بالوعد، وتواضع في التفاصيل.

وهذا التواضع يمنع كثيراً من الخيبات. لأنه لا يبني إيمانه على تخيلات محددة. لا يقول: إن كان الله معي فسيحدث كذا حتماً. بل يقول: إن كان الله معي، فسيكون معي من اليسر ما تقتضيه حكمته ورحمته، وقد لا أفهمه كله الآن.

بهذا يستقر القلب.

لا يساوم الله على صورة.
ولا يعلق يقينه بنتيجة بعينها.
ولا يجعل تأخر محبوبه اتهامًا للوعد.

ومن أسمى وجوه الرجاء المنضبط أن ترى اليسر في الهداية نفسها. فمهما ضاق العيش، إذا بقي قلبك متجهًا إلى الله، فهذا يسر لا يعادله شيء. ومهما تأخر الفرج، إذا لم تفقد صلاتك بربك، فهذا فتح. ومهما انخفض نصيبك من الدنيا، إذا بقي لك نصيب من القرآن والصلاة واليقين، فأنت في عطاء عظيم.

العسر الحقيقي أن يضيق عليك الطريق إلى الله.
أما ما سوى ذلك، فمهما اشتد، يمكن أن يكون معه يسر إذا بقي الباب إلى الله مفتوحًا.

ولذلك تختم السورة بـ {وَالْيَ رَبِّكَ فَارْغَبْ}. كأنها تقول: أعظم اليسر أن لا تنتهي رغبتك إلى غير الله. أن لا يصير الفرغ نفسه إلهك الخفي. أن لا ترغب إلى زوال العسر أكثر مما ترغب إلى ربك. نعم، اطلب الفرغ، لكن اجعل ربك غايتك. لأن الفرغ إذا جاء ولم يزدك قربًا، صار نعمة ناقصة الأثر. أما إذا بقيت مع الله في العسر، فقد وجدت اليسر الأعظم ولو تأخر غيره.

هذا معنى صعب على النفس، لكنه عالٍ.

فالنفس غالبًا تريد من الله أن يعطيها ما تحب. والقرآن يريد أن يربيها حتى تحب أن تكون مع الله فيما يعطي ويمنع. وهذا لا يعني موت الرغبات البشرية،

بل تهذيبها. تبقى تطلب العافية، والرزق، والفتح، واليسر، لكنها لا تجعل هذه المطالب أعلى من الله في قلبها.

وهنا يتحول الرجاء من طلب الأشياء إلى طلب الله مع الأشياء وبعدها وفوقها. والإنسان حين يبلغ هذا القدر لا يعود العسر قادراً على ابتلاعه. لأنه حتى لو تأخر بعض اليسر، بقي معه اليسر الأكبر: وجهته إلى ربه. ولهذا لا تكون خاتمة السورة: وإلى اليسر فارغب، بل: {وَالْيَاسِرَ فَارْغَبْ}.

فاليسر وسيلة.

والرب هو المقصد.

ومع ذلك، فإن السورة لا تلغي حاجتنا البشرية إلى اليسر. تكرر مرتين. تعترف بأن القلب يحتاج أن يسمع الوعد. فهذا الدين لا يطالب الإنسان أن يتجرد من طلب الفرج. بل يعلمه أن يطلبه بأدب، وأن يراه بأشكاله المتعددة، وأن لا يجعله شرطاً لعبوديته.

ومن هنا تتوازن النفس: لا تياس من اليسر، ولا تعبد اليسر. ترجو، وتعمل، وتصبر، وتفوض. تقرأ العسر قراءة صادقة، لكنها لا تسمح له أن يحجب الله عنها. ترى اليسرين حول العسر الواحد، لكنها لا تزعم الإحاطة بكل حكمة.

هذا هو الرجاء المنضبط: رجاء بين المعرفة والافتقار.

معرفة بأن الله وعد.

وافتقار لأن القلب لا يثبت إلا بالله.

معرفة بأن اليسر مع العسر.

وافتقار لأن العين قد لا تراه إلا إذا شرح الله الصدر.

ولذلك لا ينفصل هذا الفصل عن أول السورة. فمن أراد أن يرى اليسرين مع العسر الواحد، فليطلب شرح الصدر. لأن اليسر قد يكون حاضرًا، لكن الصدر المغلق لا يدركه. كما أن الضوء قد يكون في الغرفة، لكن العين المغمضة لا تنتفع به.

شرح الصدر هو عين اليسر.

إذا شُرح صدرك، رأيت ما كان معك.

رأيت النعم التي أهملتها.

رأيت الأبواب الصغيرة.

رأيت أن الله لم يتركك.

رأيت أن العسر، مهما قسا، ليس مطلقًا.

أما إذا ضاق الصدر، صار اليسر نفسه بعيدًا، ولو كان بين يديك. قد يأتيك الناس بالحلول، فلا تراها. قد تفتح لك فرصة، فتضيعها لأنك غارق في العسر. قد يرزقك الله معينًا، فترده لأنك سجت نفسك في صورة واحدة للنجاة.

لذلك كان الدعاء بشرح الصدر سابقًا على كثير من الفتوح.

فالفتح الخارجي إذا لم يواكبه فتح داخلي، قد لا يُرى.

واليسر إذا لم يستقبله قلب مشروح، قد يمر كأنه لم يكن.

ومن هنا نفهم أن العسر الواحد قد يكون عسرًا في الخارج وعسرًا في الداخل، فإذا شرح الله الصدر، بقي عسر الخارج، لكن عسر الداخل بدأ ينكسر. وهذا أول اليسرين. ثم يأتي يسر آخر في السبب أو العاقبة أو العمل أو الأجر. فيرى المؤمن أن الله لم يجعل ضيقه كتلة واحدة، بل فتح فيه منافذ متعددة.

وقد يكون من اليسرين: يسر المعنى ويسر العاقبة.
الأول تذوقه أثناء العسر.

والثاني تراه بعده.

وقد يكونان: يسر الصبر ويسر الفرج.

أو يسر التوبة ويسر التمكين.

أو يسر الحفظ ويسر التعويض.

أو يسر القرب ويسر كشف البلاء.

ليس علينا أن نحدد دائمًا. يكفي أن نوقن أن كرم الله أوسع من تسمية واحدة.

والأدب أن نقول: يا رب، عرفت عسرنا، وأنت الذي جعلت معه يسرًا، فافتح لنا من يسرك ما نراه وما لا نراه، ما نعلمه وما نجهله، ما يعجل لنا الرحمة وما يدخر لنا الخير، ولا تجعل عسرنا حجابًا عنك، ولا تجعل يسرنا فتنة تبعدنا عنك.

هذا الدعاء يلخص روح الفصل.

فالعسر الواحد لا يخيف من عرف أن الله لا يخلّيه من اليسر. واليسران لا يگران من عرف أن مصدرهما الله. والرجاء لا ينضبط إلا إذا بقي القلب بين الخوف من نفسه وحسن الظن بربه.

إن المؤمن لا يقول: لن أتألم.

بل يقول: لن أجعل الألم يكذب وعد الله.

ولا يقول: سأفهم كل شيء.

بل يقول: سأثق بمن يعلم كل شيء.

ولا يقول: سيأتي اليسر كما رسمت.

بل يقول: سيأتي من الله ما هو أرحم بي مما أرسم لنفسي.

وهكذا يخرج من الآيتين بقلب أمتن: لا ينهار بالعسر، ولا يطغى باليسر. يرى العسر محدودًا، واليسر مفتوحًا، والرب مقصدًا، والعمل واجبًا.

وفي هذا تمام التوازن القرآني:

لا قنوط.

لا وهم.

لا كسل.

لا اعتراض.

بل رجاء عامل، بصير، مؤدب، يعرف أن العسر لا يغلب ألطاف الله، وأن اليسر إذا جاء فهو من الله، وأن نهاية الطريق ليست اليسر نفسه، بل الرغبة إلى الله رب اليسر والعسر جميعًا.

الفصل الثاني عشر

{فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ}: لا فراغ في حياة صاحب الرسالة

بعد أن تثبتت السورة القلب بوعد اليسر، لا تتركه مستلقياً على الطمأنينة، ولا تسمح له أن يحوّل المواساة إلى توقف، بل تنقله فوراً إلى مقام العمل: {فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ}.

وهذه الآية من أشد آيات السورة تربية للنفس؛ لأنها تأتي بعد منن عظيمة ووعد متكرر، ثم لا تقول: فإذا فرغت فاسترح، ولا: فإذا فرغت فانتظر، ولا: فإذا فرغت فاطمئن إلى ما مضى، بل تقول: {فَانصَبْ}.

كأن السورة تريد أن تصحح فهمنا للراحة. فالراحة في منطق الرسالة ليست فراغاً من المعنى، بل انتقال من عبودية إلى عبودية. ليست سقوطاً في الخمول بعد إنجاز، بل تحوُّلاً من عمل إلى عمل، ومن طور إلى طور، ومن جهد ظاهر إلى جهد آخر، ربما كان أخفى وأعمق.

والفراغ في حياة الإنسان خطير. ليس لأنه وقت بلا عمل فقط، بل لأنه مساحة قابلة لأن تملأها النفس بما شاءت. فإذا لم يملأها المعنى، ملأها العبث. وإذا لم يدخلها الذكر، دخلها التششت. وإذا لم تضبطها الرغبة إلى الله، اختطفتها رغبات صغيرة لا تستأذن.

لهذا لم تجعل السورة الفراغ نهاية. جعلته بداية نصب.

{فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ}.

أي إذا انتهيت من شأن، فانهض لشأن.
إذا أتممت عبادة، فادخل في أخرى.
إذا فرغت من جهد الناس، فادخل في جهد نفسك.
إذا فرغت من البلاغ، فقم إلى المناجاة.
إذا فرغت من العمل الظاهر، فانصب في العمل الباطن.
إذا فرغت من مهمة، فلا تجعل الفراغ مقبرة المهمة.

هذه الآية لا تصنع إنساناً محمومًا لا يعرف السكينة، بل تصنع إنسانًا لا يترك حياته للفراغ الميت. وهناك فرق بين الراحة المشروعة التي يستعيد بها العبد قوته، وبين الفراغ الذي يبتلع روحه. فالقرآن لا يمنع الجسد من حاجته، ولا النفس من سعتها، لكنه يمنع الإنسان من أن يتحول إلى كائن بلا وجهة حين ينتهي من عمل.

الراحة في الإسلام ليست خروجًا من العبودية.
إنها استراحة داخل العبودية.

ينام العبد ليستيقظ.

ويستجم ليستقوي.

ويصمت ليصفو.

ويخلو ليعود أصدق.

أما الفراغ الذي يقطع القلب عن الله، ويطفئ حرارة المعنى، ويفتح أبواب التفاهة، فليس راحة، بل تآكل بطيء.

ومن هنا نفهم لماذا جاءت الآية بعد قوله: {إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا}. فاليسر لا ينبغي أن يتحول إلى بطلالة. إذا جاء اليسر بعد العسر، فليس معناه أن تتحلّى عرى العبد، بل أن يبدأ طورًا جديدًا من الشكر بالعمل. فاليسر الحقيقي لا ينتهي بك إلى النوم عن رسالتك، بل يخففك لتقوم لها.

كأن الآية تقول: لقد عرفت أن العسر ليس وحده، وأن اليسر معه، فلا تجعل هذا العلم سببًا للقيود. اجعله سببًا للنصب. فالذي يرى اليسر يستطيع أن يعمل. والذي يثق أن الله يرافق عسره بالطف لا يليق به أن يستسلم. والذي شرح صدره ووضعه عنه وزره ورُفع له ذكره لا يصح أن يعيش في فراغ بلا تكليف.

وهنا تتجلى شدة السورة وحنانها معًا.

هي حانية حين تذكر الشرح والوضع والرفع واليسر. وشديدة حين تقول: {فَأَنْصَبْ}.

لكن شدتها ليست قسوة، بل وفاء للمعنى الذي صنعت له القلب. فالقرآن لا يداويك لتبقى في فراش التعافي إلى الأبد، بل يداويك لتنهض. لا يشرح صدرك ليجعلك متفرجًا، بل ليجعلك حاملًا. لا يضع وزرك لتتخفف من كل واجب، بل لتقدر على واجب أركى. لا يعذك باليسر لتترك الطريق، بل لتسير فيه دون يأس.

إنها تربية لا تترك الإنسان في نصف الطريق.

والنصب هنا ليس مجرد تعب بدني، بل اجتهاد مقصود. فيه توجه، وبذل، واستفراغ وسع. وليس كل تعب نصبًا محمودًا. فقد يتعب الإنسان في الفراغ نفسه. يتعب في اللهات، في المقارنة، في الخصومات الصغيرة، في طلب الذكر، في مطاردة الوهم، في حمل ما لم يكلفه الله به. هذا تعب، لكنه لا يرفع. بل قد يبدد العمر.

أما النصب القرآني فهو تعب له قبلة.

تعب إلى الله.

تعب في الحق.

تعب يخرج الإنسان من نفسه لا يربطه بها.

تعب يثمر طهارة، أو علمًا، أو عبادة، أو إصلاحًا، أو صبرًا، أو نفعًا.

ولهذا ستأتي الآية التالية مباشرة: {وَالِى رَبِّكَ فَارْغَبْ}.

حتى لا يتحول النصب إلى عبودية للعمل نفسه.

فليس المطلوب أن تنصب فقط، بل أن تنصب وقلبك راغب إلى ربك. لأن العمل إذا فقد وجهته صار آلة قاسية. قد يكثر، لكنه يجف. وقد ينتج، لكنه يطغى. وقد يملأ الوقت، لكنه يفرغ الروح. فلا بد أن يكون النصب مشدودًا إلى الرغبة، وأن تكون الحركة متجهة إلى الله لا إلى مجرد الإنجاز.

وهذا من أعظم ما نحتاجه في زمن يمجّد الانشغال. ليس كل مشغول صاحب رسالة. قد يكون الانشغال هروبًا من النفس، أو خوفًا من الصمت، أو رغبة في إثبات الذات، أو إيمانًا بالحركة بلا مقصد. أما سورة الشرح فلا تريد انشغالًا، بل تريد نصبًا بعد فراغ، ورغبة إلى الله بعد نصب.

إنها لا تقول: فاشغل نفسك.

بل تقول: {فَانْصَبْ}، ثم تقول: {وَالِى رَبِّكَ فَارْغَبْ}.

أي ليكن تعبك ذا معنى، ولتكن وجهتك ربانية.

والفرق بينهما كبير.

الانشغال قد يبدد الإنسان.

أما النصب لله فيجمعه.

ومن زاوية أخرى، فإن الآية تعالج فتنة الإنجاز. فالإنسان إذا أنجز شيئاً يميل إلى أن يسكن إليه. يرى أنه فعل، وكتب، وبنى، وبلغ، وصبر، وربما يطلب مكافأة طويلة من الراحة أو الاعتراف. فتأتي الآية لتقول: لا تجعل الفراغ من عمل نهاية علاقتك بالتكليف. كل إنجاز يفتح عليك سؤالاً جديداً: ماذا بعد؟

ليس على معنى الجشع في الإنتاج، ولا على معنى استنزاف النفس، بل على معنى أن المؤمن لا يعيش بلا مقصد. كلما فرغ من طاعة، نظر إلى طاعة أخرى. كلما انتهى من واجب، سأل عن واجب الوقت. كلما تجاوز عسراً، بحث عن شكر ذلك اليسر. كلما أتم بناءً، خاف من أن يتحول البناء إلى صنم يعبد.

الإنجاز قد يكون فتنة إذا أوقفك عنده.

وقد يكون من دقة التعبير قوله: {فَإِذَا فَرَغْتَ}. الفراغ واقع. هناك انتهاء من شأن ما. ليست الحياة عملاً واحداً مستمراً بلا فواصل. لكن الفاصل لا ينبغي

أن يكون سقوطاً من المعنى. لا بد أن يتحول إلى معبر. أنت تفرغ من أمر، لا من العبودية. تفرغ من جهد، لا من الوجهة. تفرغ من مرحلة، لا من السير.

وبذلك تعطي الآية شكلاً متحرّكاً للحياة المؤمنة:

فراغ يعقبه نصب.

ونصب يعقبه رغبة.

ورغبة تعيد النصب إلى الله.

إنها حركة دائرية صاعدة، لا حركة عبثية. لا تنتهي عند العمل، بل تصعد منه إلى الله. ولا تنتهي عند الفراغ، بل تجعله بوابة عمل. ولا تنتهي عند اليسر، بل تجعله وقوداً.

وهذا هو الفارق بين الإنسان الرسالي والإنسان العادي في فهم الفراغ. الإنسان العادي إذا فرغ بحث عما يقتل به الوقت. أما الإنسان الرسالي فيعرف أن الوقت لا يُقتل؛ لأنه رأس مال العبودية. لا يعني ذلك أن يعيش متجهماً، ولا أن يرفض المباح الطيب، ولا أن يرهق نفسه بما لا تطيق، ولكنه لا يسمح للفراغ أن يصير سيّداً عليه. حتى مباحه يدخل في نظام المعنى: راحة تعينه، أو أنس يرقق قلبه، أو خلوة تعيد إليه توازنه، أو لقاء يثبت مودة صالحة.

أما أن يكون الفراغ حفرة يسقط فيها الوعي، فهذا ما لا تريده السورة.

والآية أيضاً تعلمنا أن الانتقال بين الأعمال يحتاج يقظة. فكثير من الناس لا يهزمهم العسر نفسه، بل يهزمهم ما بعد العسر. في الشدة يكونون متماسكين، فإذا جاء اليسر تفلتوا. في البلاء يكثرلون الدعاء، فإذا كشف البلاء قلّت الرغبة.

أثناء الضغط يحفظون وقتهم، فإذا اتسع الوقت بعثروه. وكأنهم كانوا عبادًا
للحاجة لا عبادًا لله.

سورة الشرح تمنع هذا الانحدار. بعد اليسر تقول: {فَأَنْصَبْ}.

أي لا تجعل انكشاف الشدة بداية الغفلة.

لا تكن مع الله لأنك مضطر فقط.

كن معه لأنك عبد.

وهذا يميز العبودية الناضجة من العبودية الطارئة. العبودية الطارئة تشتد في
الضييق وتضعف في السعة. أما العبودية الناضجة فتعرف الله في العسر
واليسر، في الفراغ والنصب، في الحاجة والقدرة. فإذا فرغت لم تقل: انتهت
حاجتي. بل قالت: بدأت مسؤوليتي.

ما أجمل هذا المعنى: الفرغ مسؤولية.

حين يضع الله عنك وزرك، فأنت مسؤول عن خفتك.

حين يشرح صدرك، فأنت مسؤول عن سعته.

حين يرفع ذكرك، فأنت مسؤول عن أثره.

حين يجعل مع عسرك يسرًا، فأنت مسؤول عن استعمال هذا اليسر.

وحين تفرغ، فأنت مسؤول ألا يتحول فراغك إلى غفلة.

هذه السورة لا تسمح للنعم أن تبقى بلا جواب.

والجواب هنا هو النصب. لا مجرد الشكر اللفظي، وإن كان الحمد باللسان
عظيمًا، بل الشكر العملي: أن تقوم، أن تبذل، أن تحمل نصيبك، أن لا تجعل

اليسر رفاهية، أن لا تجعل السعة نومًا، أن لا تجعل الذكر المرفوع زينة بلا أثر.

ومن أبلغ ما في الآية أنها تخاطب النبي ﷺ، وهو في أعلى مقامات العبودية، ومع ذلك يقال له: {فَأَنْصَبْ}. فإذا كان سيد العاملين مأمورًا بالقيام بعد الفراغ، فكيف بمن دونه؟ وكيف بمن يعيش على حافة التردد، يطلب من كل تعب إذنًا طويلاً بالانقطاع؟

إنها آية توقظ من يظن أن مجرد حسن الشعور يكفي. لا يكفي أن ينشرح صدرك، ثم لا تعمل. ولا يكفي أن تعرف أن مع العسر يسرًا، ثم لا تتحرك. ولا يكفي أن تتذوق المعنى، ثم لا تدفع ثمنه. القرآن لا يربي متذوقين فقط، بل يربي عابدين عاملين.

وهنا ينبغي أن نفهم العمل بمعناه الواسع. ليس النصب محصورًا في صورة واحدة. قد يكون نصب العالم في تعليمه. ونصب الكاتب في بيانه. ونصب العابد في خلوته. ونصب المربي في صبره. ونصب المجاهد في موضع جهاده المشروع المنضبط. ونصب الأم في بيتها. ونصب الفقير في عفته. ونصب المريض في صبره وذكره. ونصب التائب في مقاومة عاداته. ونصب صاحب الفكر في تحرير المعنى من الزيف.

كل عبد له نصب يليق بمرحلته وقدره وواجبه.

لكن الجامع أن لا يعيش فراغاً من العبودية.
قد يختلف العمل، لكن الوجهة واحدة.
وقد تختلف الطاقة، لكن المطلوب بذل الوسع لا ادعاء ما ليس في الوسع.

وهذا مهم حتى لا تتحول الآية إلى سوط يجلد به الإنسان نفسه أو غيره بلا فقه. {فَأَنْصَبْ} لا تعني استنزاف النفس حتى تنكسر، ولا ترك الحقوق، ولا إهمال الجسد، ولا احتقار الراحة التي تعين على الطاعة. فالشرع كله جاء بالعدل، والله لا يكلف نفساً إلا وسعها. لكن الآية ترفض الفراغ الذي لا معنى له، لا الراحة التي تخدم المعنى.

الراحة التي تعينك على النصب جزء من النصب من جهة المقصد.
أما الراحة التي تسرقك من الله فهي فراغ ميت.

ومن هنا يكون الفقه الدقيق أن تسأل: هل راحتي تعيدني إلى الطريق، أم تخرجني منه؟ هل هذا السكون شفاء، أم هروب؟ هل هذه الخلوة صفاء، أم انسحاب؟ هل هذا التوقف مراجعة، أم كسل؟ هل هذا التخفف رحمة، أم ذوبان في التفاهة؟

ليست المشكلة في التوقف أحياناً، بل في فقدان الوجهة أثناء التوقف.

والآية كذلك تفتح معنى جميلاً في تعاقب الأعمال: أن العبد لا ينبغي أن يظل أسير عمل واحد إذا فرغ منه، بل ينتقل بحسب واجب الوقت. قد يكون في مرحلة يحتاج إلى العلم، ثم إلى البيان، ثم إلى الصبر، ثم إلى الخلوة، ثم إلى

إصلاح العلاقة، ثم إلى مقاومة عادة، ثم إلى خدمة الناس. كل فراغ من طور يفتح نصبًا في طور آخر.

الجمود على صورة واحدة من العمل قد يخفي كسلًا عن واجب جديد.

وقد يظن الإنسان أنه أدى ما عليه لأنه برع في باب، بينما يطالبه الله بباب آخر. من فراغ من الكتابة مثلاً قد يحتاج أن ينصب في تهذيب قلبه. ومن فراغ من العبادة الظاهرة قد يحتاج أن ينصب في إصلاح خلقه. ومن فراغ من مشروع عام قد يحتاج أن ينصب في حق أهله. ومن فراغ من مقاومة عدو خارجي قد يحتاج أن ينصب في مقاومة عدو داخلي أشد خفاء.

فالآية تمنع الإنسان من أن يسجن العبودية في صورة مريحة له. تقول له: إذا فرغت من هذا، فهناك ذاك.

لا لأن الله يريد إيتابك لذات التعب، بل لأنه يريد ترقيتك.

والترقي لا يكون في الفراغ.

إن النفس إذا تُركت بلا نصب نكست. لا تبقى في حياد. إما أن تصعد بعمل، أو تهبط بفراغ. ولذلك كان الفراغ أخطر من التعب أحيانًا. التعب في الحق ينهك الجسد، لكنه يزكي الروح. أما الفراغ بلا معنى فيريح الجسد قليلاً، ثم يأكل الروح كثيرًا.

ومن عرف نفسه خاف من الفراغ كما يخاف من العسر.

فالعسر يضغط من الخارج.

والفراغ يفتح أبواب الداخل لكل لص.

كم من إنسان خرج من محنة عظيمة ثابتًا، ثم سقط في فراغ صغير.
وكم من قلب صبر في الشدة، ثم ضعف في السعة.
وكم من صاحب مشروع أفسده ما بعد الإنجاز لا ما قبله.

ولهذا جاءت الآية في هذا الموضع، بعد اليسر مباشرة. كأنها حراسة لمرحلة ما بعد العسر. نعم، مع العسر يسر. لكن إذا لم تحسن استقبال اليسر، صار اليسر نفسه فتنة. وإذا لم تجعل الفراغ بعد اليسر نصبًا، صار الفراغ باب غفلة.

وهذه من أرفع دلالات السورة: أنها لا تخاف على الإنسان من العسر وحده، بل تخاف عليه من اليسر أيضًا. العسر قد يكسره، واليسر قد يرخي قبضته عن نفسه. لذلك تعطيه في العسر وعدًا، وتعطيه في اليسر أمرًا. الوعد يمنعه من اليأس، والأمر يمنعه من الغفلة.

ما أعظم هذا التوازن.

في الشدة: لا تيأس.

في السعة: لا تكسل.

في الثقل: الله يضع.

في الخفة: قم وانصب.

في الرفع: لا تغتر.

في الفراغ: لا تتبعثر.

في كل ذلك: إلى ربك فارغب.

وهكذا تصير حياة المؤمن حركة واعية بين الرحمة والتكليف. لا رحمة بلا واجب، ولا واجب بلا مدد. لا وعد بلا عمل، ولا عمل بلا رغبة. وهذا هو سر القوة في التربية القرآنية.

ومن جهة لغوية، فإن الفاء في {فَانْصَبْ} تفيد سرعة الانتقال. لا تطل الوقوف في الفراغ. لا تجعل المسافة بين عمل وعمل متاهة. ليس المقصود العجلة المذمومة، بل عدم الاسترسال في الخمول. النفس إذا ذقت الفراغ طويلاً صعب عليها القيام. وكلما طال السكون غير المنضبط صار النصب أثقل.

لذلك يبادر العبد.

يفرغ، فينتقل.

لا يترك قلبه يتسكع في اللاشيء.

وقد يكون الانتقال من عمل ظاهر إلى عبادة قلبية. فليست الآية دعوة إلى الضجيج المستمر. ربما فرغت من شأن الناس، فانصب في شأن الله: صلاة، ذكر، دعاء، مراجعة نية، محاسبة نفس، قراءة، توبة. وربما فرغت من العبادة الخاصة، فانصب في نفع الخلق. المهم ألا يكون الفراغ قطيعة عن الله.

كل فراغ ينبغي أن يسأل: إلى أي نصب سأتحول؟

وهذا السؤال يربي الانتباه. يجعل الإنسان يعيش حياته لا بردود الفعل، بل بالاختيار. لا يترك الأيام تسحبه، بل يضعها في طريق. ليس مالكا مطلقاً للزمن، لكنه عبد مسؤول عن نصيبه منه.

والوقت في سورة الشرح ليس مذكورًا صراحة، لكنه حاضر بقوة. فراغ، نصب، رغبة. هذه كلها أحوال تجري في الزمن. وكأن السورة تقول: لا تجعل الزمن وعاءً فارغاً، بل اجعله ميدان عبودية. فإذا انتهت قطعة منه في عمل، فابدأ قطعة أخرى في عمل آخر.

والإنسان الذي يعيش بهذا المعنى لا يعرف الفراغ المميت. قد يرتاح، لكنه لا يغيب. قد يسكن، لكنه لا يتبدد. قد يضحك، لكنه لا ينسى. قد ينام، لكنه ينام على نية الاستيقاظ لله. وهذه ليست مثالية متكلفة، بل هي روح العبودية حين تتسع للحياة كلها.

إن {فَأَنْصَبْ} لا تعني أن تكون متوترًا دائمًا، بل أن تكون متجهًا دائمًا.

والفرق بين التوتر والاتجاه كبير.

التوتر قلق.

أما الاتجاه فسكينة عاملة.

التوتر يستنزفك.

أما الاتجاه فيجمعك.

التوتر يجعلك عبد النتائج.

أما الاتجاه فيجعلك عبد الله في الطريق إلى النتائج.

وسورة الشرح لا تريد متوترين، بل متجهين.

ولهذا ختمت بالرغبة إلى الله لا بمجرد العمل. فالعمل بلا رغبة قد يصير ضغطاً، أما العمل مع الرغبة فيصير عبادة. والنصب بلا ربانية قد يصير قسوة على النفس والناس، أما النصب إلى الله فيصير طريقاً للتزكية.

ومن هنا نستطيع أن نقرأ الآية قراءة جامعة: إذا فرغت من عسر كُشف، أو عمل أتم، أو واجب أُدي، أو مرحلة انقضت، فلا تجعل الفراغ نهاية وعيك؛ انهض إلى ما يطلبه الله منك الآن، بقدر وسعك، بقلب لا يتوكل على نفسه، ثم اجعل رغبتك كلها إلى ربك.

هذا هو المعنى العملي.

ولعل أعظم ما تصنعه الآية أنها تمنح الإنسان علاجاً ضد التبعض. فكثير من الناس لا ينقصهم الوقت، بل تنقصهم الوجهة. يملكون فراغاً واسعاً، لكنه يتسرب. ولو سألوا: بماذا أنصب بعد فراغي؟ لتغيرت حياتهم. ليس المطلوب أن يحملوا العالم كله، بل أن لا يتركوا أنفسهم بلا حمل شريف.

فالإنسان لا ينجو من الأثقال بالفراغ المطلق، بل باختيار الحمل الصحيح.

إن لم تحمل معنى، حملتك التفاهة.

وإن لم تنصب في حق، نصبت في باطل أو عبث أو قلق.

النفس لا تبقى فارغة.

إما أن تملأها بعمل يقربك، أو تملؤك بما يبعثرك.

وسورة الشرح تقدم الطريق الأعلى: افرغ، فانصب، ثم ارغب. أي اجعل حياتك انتقلاً من واجب إلى واجب، ومن معنى إلى معنى، ومن جهد إلى جهد، لكن لا تجعل الجهد يدور حول نفسه؛ اربطه بالله.

وهكذا يصبح الفراغ نفسه نعمة إذا صار بوابة نصب. ويصبح النصب رحمة إذا صار طريق رغبة. وتصبح الرغبة نجاة إذا انتهت إلى الله.

وفي ضوء هذا، لا يعود قوله: {فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ} أمراً ثقیلاً على النفس، بل تحريراً لها من الفراغ الذي يفسدها. إنه يقول لها: لا تبقي بلا معنى. لا تسمح للوقت أن يصير مستنقعا. لا تظني أن الراحة في انقطاعك عن رسالتك. راحتك الحقيقية أن تكوني في الموضع الذي أراده الله لك، حتى وأنت تتعبين.

فالتعب في المعنى أرحم من الراحة في الضياع.
والنصب إلى الله أزكى من الفراغ بعيداً عنه.

ومن ذاق هذا عرف أن سورة الشرح لا تعطيه صدرًا واسعًا ليهرب به من التكليف، بل لتعطيه قدرة على التكليف. ولا تعطيه وعد اليسر ليزوب في الراحة، بل ليقاوم اليأس ويعمل. ولا تختتم له بالعمل فقط، بل تفتح له باب الرغبة إلى الله، حتى يبقى النصب نورًا لا عبأً مظلماً.

وهذا الفصل هو منعطف السورة من المواساة إلى القيام.

من: شرحنا، وضعنا، رفعنا، يسرنا.

إلى: فانصب.

وكأن المنن كلها تقول للعبد: قم الآن.
لا لأنك قوي بنفسك، بل لأن الله أعانك.
لا لأن الطريق بلا عسر، بل لأن مع العسر يسراً.
لا لأنك انتهيت، بل لأن كل فراغ بداية نصب جديد.

فيا صاحب الصدر المشروح، لا تسكن.
ويا من خفف الله عنه، لا تتبدد.
ويا من رأى اليسر، لا يبتلعك الفراغ.
ويا من فرغ من عمل، فليكن فراغك باباً لا حفرة.

{فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ}:

هذه ليست دعوة إلى التعب من أجل التعب، بل دعوة إلى أن تظل حياتك
مشدودة إلى معنى، حتى لا تقع في فراغ لا يليق بمن عرف أن الله شرح
صدره، ووضع وزره، وجعل مع عسره يسراً.

الفصل الثالث عشر

التعب بعد التعب: كيف يصير النصب عبادة؟

ليست قيمة التعب في ذاته. فليس كل تعب يقرب، ولا كل نصب يطهر، ولا كل انشغال علامة حياة. قد يتعب الإنسان في طريق يبعده عن الله، وقد يستنزف عمره في مطاردة صورة، أو خصومة، أو مكسب، أو مجد موهوم، ثم يخرج من تعبته أكثر جفافاً وأضيق صدرًا وأشد تعلقًا بنفسه. لذلك لا يكفي أن نقول: لقد تعبت. السؤال الأعمق: فيم تعبت؟ ولمن تعبت؟ وإلى أين قادك التعب؟

هنا يأتي قوله تعالى: {فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ}، ثم يعقبه مباشرة: {وَالِى رَبِّكَ فَارْغَبْ}، ليصنع الميزان الفاصل بين التعب الذي يستهلك الإنسان والتعب الذي يزكيه. فالنصب لا يصير عبادة بمجرد شدته، بل بوجهته. لا يصير طاعة لأنه أرهاق الجسد، بل لأنه انقاد لأمر الله، واتصل بالرغبة إليه، وخلا من عبودية النفس ما استطاع.

التعب إذا كان لله صار خفيفًا في معناه، وإن بقي ثقیلاً في جسد صاحبه. والراحة إذا كانت بعيداً عن الله صارت ثقيلة في عاقبتها، وإن بدت ناعمة في ظاهرها.

وهذا من أسرار التربية في السورة. فهي لا تطلب نصباً مطلقاً، بل نصباً بعد فراغ، ورغبة بعد نصب. أي إن العمل ليس حركة عشوائية، ولا توترًا دائمًا،

ولا قسوة على النفس باسم الرسالة، بل انتقال واعٍ من واجب إلى واجب، ثم ربط كل ذلك بالله.

فالعبد قد يفرغ من شأن دنيوي فينصب في عبادة.
وقد يفرغ من عبادة خاصة فينصب في حق الناس.
وقد يفرغ من تعليم فينصب في تركية نفسه.
وقد يفرغ من كتابة فينصب في مراجعة نيته.
وقد يفرغ من مواجهة فينصب في ترميم قلبه.
وقد يفرغ من عسر طويل فينصب في شكر اليسر.

ليست الحياة المؤمنة خطأ واحداً من التعب، بل انتقال بين أنواع من العبودية. وكل نوع له نصبه. الصلاة لها نصبها، والعلم له نصبه، والصبر له نصبه، والبيان له نصبه، وكظم الغيظ له نصبه، وحفظ اللسان له نصبه، ومقاومة الرياء لها نصب خفي لا يراه الناس.

وقد يكون النصب الخفي أعلى من النصب الظاهر.

فليس أصعب العمل دائماً ما رآه الناس. قد تكون الكلمة التي لم تقلها لله أشق عليك من خطبة طويلة. وقد يكون غضب كتمته ابتغاء وجه الله أعمق أثراً في تركيتك من عمل يمدحك عليه الناس. وقد تكون نية صحتها في الظل أثقل في الميزان من جهد كبير لو ثبته النفس بطلب الذكر.

لهذا لا ينبغي أن يخدعنا ظاهر النصب. فالسورة نفسها بعد أن ذكرت رفع الذكر لم تجعل الذكر غاية. بل ردت الأمر إلى العمل والرغبة. كأنها تقول:

ليس المهم أن يُرى نصبك، بل أن يتجه إلى ربك. وليس المهم أن يعرف الناس تعبك، بل أن لا يضيع عند الله.

والنصب إذا صار عبادة تغيّر أثره في النفس. التعب العادي يملأ القلب بالشكوى وحدها، أما التعب لله فيملؤه بالافتقار. التعب العادي يجعل الإنسان يقول: لماذا أنا؟ أما التعب لله يجعله يقول: يا رب أعني، وتقبل مني، ولا تكنني إلى نفسي. التعب العادي يطلب تعويضًا من الناس، أما التعب لله ينتظر القبول من الله. التعب العادي إذا لم يُشكر غضب، أما التعب لله إذا خفي عن الناس ازداد صفاءً، ما دام الله يعلمه.

وهذا لا يعني أن العامل لا يحتاج إلى إنصاف أو تقدير، ولا أن الظلم عليه مقبول. بل يعني أن قلبه لا يجعل تقدير الناس مصدر حياته. قد يفرح بالشكر، لكنه لا يعبد. وقد يتألم من الجحود، لكنه لا يترك العمل الصالح لأجله. لأن تعبته، في أصله، متجه إلى الله.

ومن هنا نفهم أن أعظم ما يحفظ النصب من الفساد هو قوله: {وَالِى رَبِّكَ فَارْغَبْ}. فالرغبة إلى الله هي التي تمنع التعب من أن يتحول إلى تجارة نفسية. إذا تعبت للناس وحدهم، كسرك الناس. إذا تعبت لصورتك، أفسدتك الصورة. إذا تعبت للنتيجة وحدها، انهزت عند التأخير. أما إذا تعبت لله، صار لكل نتيجة موضعها: إن جاءت شكرت، وإن تأخرت صبرت، وإن خفي أثرك بقي الله.

إن العمل إذا لم يرتبط بالله صار قاسياً.
والتعب إذا لم يستند إلى الرجاء صار مرّاً.
والنصب إذا لم تغسله النية صار طريقاً إلى العجب أو الاحتراق.

ولذلك ليست الآية دعوة إلى استنزاف الذات، بل إلى تحويل الطاقة إلى عبودية. فالإنسان لا يُطلب منه أن يبذل قواه بلا فقه، ولا أن يحرم نفسه من حقها باسم النصب، وإنما يطلب منه أن لا يجعل الفراغ غفلة، وأن لا يجعل الراحة انفصلاً، وأن لا يجعل العمل معبوداً. الميزان هنا دقيق: اعمل دون أن تؤلّه العمل، واسترح دون أن تهرب من التكليف.

وقد كان من كمال الهدى النبوي أن العباد لا تنفصل عن الرحمة بالنفس. فالجسد له حق، والأهل لهم حق، والرب له حق، وكل حق يوضع في موضعه. وليس من الفقه أن يظن الإنسان أن النصب المحمود هو أن يحطم نفسه حتى يعجز عن الاستمرار. فالمقصود أن تبقى الحياة في مدار العبودية، لا أن تتحول إلى ضغط أعمى.

النصب العبادي ليس احتراقاً فوضوياً.
إنه بذل منظم بنور الوحي.

والفرق بينهما أن الاحتراق يستهلكك ثم يتركك رماداً، أما البذل لله فيتعبك، لكنه ينضجك. قد يرهق جسدك أحياناً، لكنه يفتح داخلك. قد يأخذ من وقتك، لكنه يعطي عمرك معنى. قد يحرمك من بعض الراحة، لكنه يمنحك سكينة أعمق من الراحة.

ومن هنا يصبح التعب نفسه جزءًا من التربية. لا لأنه محبوب لذاته، بل لأنه يكشف صدق الطريق. فالإنسان لا يعرف حقيقة ما يحب حتى يتعب لأجله. من أحب العلم تعب في طلبه. ومن أحب الحق تعب في نصرته. ومن أحب الله تعب في مخالفة هواه. ومن أحب الآخرة تعب في تهذيب دنياه.

التعب مرآة الحب.

لكن الحب إذا لم يهتد بالوحي قد يتطرف. قد يتعب الإنسان فيما لم يؤمر به، ويترك ما أمر به. قد يطلب مشقة لم يطلبها الله، ويهمل واجبًا قريبًا. قد يهرب إلى عمل يحبه لأنه يمنحه صورة جميلة عن نفسه، ويترك عملاً يكرهه وهو أوجب عليه. لذلك يحتاج النصب إلى فقه، لا إلى حماسة فقط.

ليس كل ما أتعبك الله هو الله فعلاً.

قد يكون للنفس فيه نصيب خفي.

وقد يكون هروبًا من واجب أثقل.

وقد يكون طلبًا لمقام لا طلبًا لرضا الله.

ومن هنا يجب أن يسأل العبد نفسه: هل هذا النصب مأذون به؟ هل هو في موضعه؟ هل يزاحم واجبًا أوجب منه؟ هل يزيدني قربًا من الله أم يزيدني تعلقًا بنفسي؟ هل يجعلني أرحم أم أقسى؟ هل يفتح صدري أم يملؤه تعاليًا على الناس؟

هذه الأسئلة ليست لتعطيل العمل، بل لتنقيته.

فالعمل بلا محاسبة قد يصير طريقًا إلى الغرور. والنصب بلا مراجعة قد يصير عبودية للإنجاز. أما النصب الذي يصير عبادة فهو نصب يظل خاضعًا لله: يبدأ بأمره، ويستعين به، وينتهي إليه، ويخاف صاحبه ألا يُقبل منه.

ومن دقائق هذا الباب أن التعب لله لا يلغي الفرح. بعض الناس يتصورون أن العبادة الجادة لا بد أن تكون مكفهرة دائمًا، كأن الطريق إلى الله لا يعرف سعة ولا أنسًا. وهذا تصور ناقص. النصب قد يكون شاقًا، لكنه لا يمنع أن يجد القلب فيه لذة المعنى. بل ربما كان في بعض التعب لله راحة لا يعرفها أهل الراحة الفارغة.

هناك تعب يضيء.

وتعب يظلم.

تعب يخرجك من ضيق نفسك إلى سعة الله.

وتعب يعيدك إلى نفسك أضيق مما كنت.

النصب الذي تأمر به السورة من النوع الأول: نصب يخرج من الشرح إلى الرغبة، لا من القلق إلى التلاشي. نصب يعرف أن الله هو المقصد، وأن العبد ليس مطلوبًا منه أن يحمل الكون على ظهره، بل أن يحمل تكليفه بصدق.

وهذه نقطة مهمة لأصحاب الرسائل والأقلام والمشاريع. قد يظن أحدهم أن إخلاصه يقتضي أن يحمل كل شيء، وأن لا يتوقف، وأن لا ينام، وأن لا يضع حدًا لطاقته. ثم ينكسر، وربما يكره الطريق لأنه لم يفقه قدر نفسه. والقرآن لا يطلب منك أن تكون ربًا مدبرًا، بل عبدًا عاملاً. الفرق بينهما يحفظ النفس من الهلاك.

العبد يعمل ضمن وسعه.

والرب هو الذي يدبر النتائج.

فإذا ظن العبد أنه مسؤول عن كل نتيجة، احترق. وإذا علم أنه مسؤول عن صدق السعي لا عن امتلاك العواقب، عمل واطمأن. وهذا من معنى الرغبة إلى الله بعد النصب: أن تبذل، ثم تترك الأمر لله. لا تعمل وكأن الكون متوقف عليك. ولا تترك العمل بحجة أن الأمر كله لله. بل اعمل لأنك عبد، وفوض لأنك عبد.

العبودية تجمع الأمرين: جهدًا بلا ادعاء، وتفويضًا بلا كسل.

ومن هنا يصير النصب عبادة حين يتحرر من وهم السيطرة. أنت لا تعمل لتضمن كل شيء، بل لتؤدي ما عليك. لا تكتب لتملك قلوب الناس، بل لتشهد للحق بما تستطيع. لا تدعو لتجبر الهداية على أحد، بل لتبلغ. لا تصبر لأنك تعرف نهاية القصة كلها، بل لأنك تثق بمن يعلمها.

هذا الوعي يخفف مرارة التعب. فالإنسان يتعب مرتين حين يريد أن يملك ما ليس له: يتعب في العمل، ويتعب في السيطرة على نتائجه. أما المؤمن فيتعب التعب الأول عبادة، ويترك التعب الثاني لله. يبذل، ثم لا يظل معلقًا بباب النتيجة كمن لا رب له.

ولذلك كان قوله: {وَالِى رَبِّكَ فَارْغَبْ} تحريرًا للعامل من عبودية الثمرة. سيأتي تفصيله، لكن أثره هنا واضح: النصب لا يكتمل إلا بالرغبة إلى الله؛ لأن من رغب إلى غير الله بعد نصبه صار أسيرًا لذلك الغير.

إن رغبت إلى المدح، صار المدح مالگًا لك.
وإن رغبت إلى الانتشار، صار الانتشار سوطًا عليك.
وإن رغبت إلى النتيجة، صارت النتيجة قاضيًا على قيمتك.
أما إن رغبت إلى الله، صار كل ما سواه في موضعه: سببًا، أو ثمرة، أو ابتلاء، لا إلها صغيرًا في قلبك.
وهكذا يصير التعب حرًا.

ومن علامات النصب الذي صار عبادة أن صاحبه لا يزدري من لم يعمل عمله. لأن من يعمل لله يعرف أن أبواب العبودية كثيرة، وأن الله يوزع الأقدار والتكاليف والطاقات. أما من يعمل لنفسه، فيجعل عمله مقياسًا يحتقر به غيره. فإذا تعب في باب، ظن أن من لم يتعب فيه ناقص. وهذا من فساد النصب حين يخلو من الرغبة إلى الله.

النصب العبادي يزيدك تواضعًا.
والنصب النفسي يزيدك مطالبة للناس وإدانة لهم.

من تعب لله رأى فضل الله عليه أن استعمله.
ومن تعب لنفسه رأى فضله على الناس لأنه عمل.

والفرق بينهما عميق. الأول يشكر أن الله فتح له بابًا. الثاني يمتن على الخلق بأنه دخل الباب. الأول يخاف ألا يقبل عمله. الثاني يغضب ألا يمدحه الناس. الأول يرحم المتعثرين لأنه يعرف أن الثبات فضل. الثاني يقسو عليهم لأنه يرى نفسه أصل قوته.

وسورة الشرح من أولها تقطع هذا الغرور؛ لأنها تنسب المنن إلى الله: شرحنا، وضعنا، رفعنا. فإذا وصل العبد إلى {فَانْصَبْ}، وصل وهو محاط بذاكرة الفضل. لا ينصب مغترًا، بل ممتنًا. كأن لسان حاله: يا رب، أنت شرحت، وأنت وضعت، وأنت رفعت، وأنت جعلت مع العسر يسرًا، فأعني الآن على النصب، ولا تجعلني أرى عملي مستقلًا عن فضلك.

هذا هو النصب الطاهر.

وقد يكون من أعظم صور النصب في زماننا نصب مقاومة التفاهة. أن تحفظ قلبك من التشتت، وعقلك من السطحية، ولسانك من الرداءة، ووقتك من التبديد. هذا نصب لا يراه الناس كثيرًا، لكنه شديد. أن تعيش في زمن يجر الإنسان إلى الضجيج، ثم تصر أن تبقى عميقًا. أن تحاط بالسرعة، ثم تصبر على النضج. أن تغريك الشهرة السريعة، ثم تختار المعنى الباقي. أن يتكاثر الكلام الفارغ، ثم تنصب في كلمة مسؤولة.

هذا نصب عبادي إذا صحت نيته.

وقد يكون النصب في أن تكتب نصًا لا يخون الحق، مع أن النص السطحي أسرع انتشارًا. أن تصبر على تحرير المعنى بدل أن تطلق عبارة براقة فارغة. أن تراجع نفسك حين يمدحك الناس. أن لا تبيع عمقك لسوق السرعة. أن تتعب في بناء فكرة تنفع، لا في صناعة ضجيج يلمع ثم يموت.

وهذا نصب خاص بأهل الكلمة.

فالكلمة أمانة. والفراغ بعدها خطر. إذا فرغ الكاتب من نص، فليُنصب في تصحيح نيته، أو في نص آخر، أو في قراءة أعمق، أو في صمت يقيه من غرور الإنتاج. لا يجعل الكتابة سلمًا إلى ذاته، بل يجعلها طريقًا إلى الحق. فإذا رُفِع ذكره بشيء كتبه، ازداد خوفًا لا انتفاخًا. وإذا لم يلتفت الناس، بقي يكتب ما دام يرى أن عليه شهادة يؤديها.

ومن لم يتعلم هذا، أكلته الكتابة التي ظن أنه يأكل بها المجد. تصير الكلمة مرآة للنفس لا مصباحًا للناس. يصير التعب في الصياغة خادمًا للظهور لا للحقيقة. وهنا يخرج النصب من العبادة إلى الصنعة المريضة.

لذلك لا بد أن يأتي بعد {فَأَنْصَبْ} قوله: {وَالِى رَبِّكَ فَارْغَبْ}.

كأن السورة تخاطب كل عامل: احذر أن يسرقك عملك من ربك.

احذر أن تنصب في الطريق، ثم تنسى المقصد.

احذر أن يرفع الله لك ذكرًا، فتجعل الذكر وطنك.

احذر أن يعطيك يسرًا، فتسكن إلى اليسر دون المنعم.

والنصب يصير عبادة كذلك حين يحمل صفة الاستمرار المتزن. ليس اندفاعًا يوميًا، ثم انقطاعًا طويلاً. بل وفاء هادئ. فالآية لا تقول: فإذا فرغت فائثر، أو فاندفع، بل: {فَأَنْصَبْ}. والنصب يوحي ببذل وجهد، لكنه لا يلزم منه الصخب. قد يكون أهدأ الأعمال أثقلها نصبًا وأعظمها أثرًا.

الاستمرار الهادئ من أعلى صور النصب.

أن تعود كل يوم إلى واجبك ولو بلا شهود.

أن تقرأ، وتكتب، وتربي، وتصبر، وتدعو، وتصلح، وتقاوم نفسك، دون أن تنتظر دائماً لحظة اشتعال كبيرة.

كثير من النفوس تحب البداية لأنها تمنحها لذة الحماس، وتكره الاستمرار لأنه يطلب منها صدقاً لا يراه الناس. وسورة الشرح تربي على ما بعد البداية: إذا فرغت، فانصب. أي كل نهاية بداية أخرى. لا تعش على ومضة واحدة. لا تجعل الإنجاز السابق عذراً للتوقف. لا تكن ابن لحظة، بل صاحب طريق. وصاحب الطريق يعرف أن التعب يتكرر. وأن اليسر لا يعني نهاية النصب. وأن العسر إذا زال جاء واجب الشكر. وأن العمل إذا تم جاء واجب الحفظ. وأن الذكر إذا رُفِع جاء واجب التواضع. وأن الصدر إذا شُرح جاء واجب أن يحمل.

هكذا تصبح الحياة سلسلة عبوديات لا سلسلة فراغات.

ومن هنا يكون التعب بعد التعب ليس لعنة، بل علامة حياة إذا كان في طاعة الله. فالشجرة الحية وحدها تحتاج ماءً متكرراً، وتتعرض لرياح، وتثمر ثم تعود إلى دورة أخرى. أما اليابس فلا يطلب منه شيء. والإنسان الحي بالإيمان لا ينتهي من عبودية حتى يدخل في أخرى؛ لأن علاقته بالله لا تعرف التقاعد.

لكن هذا لا يعني أن كل مراحل الحياة بجهد واحد. هناك نصب الشباب، ونصب الكهولة، ونصب المرض، ونصب العافية، ونصب العلم، ونصب الصبر. قد يتغير الشكل، لكن الأصل باقٍ: لا فراغ من المعنى.

فإذا ضعفت طاقتك عن عمل، فانصب فيما تقدر.

إذا عجز جسدك، فانصب بقلبك ولسانك.

إذا ضاق وقتك، فانصب بحفظ نيتك وواجبك الأقرب.

إذا لم تستطع الكثير، فلا تحتقر القليل الصادق.

النصب عبادة بقدر الوسع، لا بقدر أوهام الكمال.

وهذا يحمي الإنسان من اليأس حين لا يستطيع ما كان يستطيع. فبعض الناس إذا عجز عن الصورة الكبيرة للعمل ترك الصغيرة. وهذا خطأ. ما دام هناك يسر مع العسر، فهناك نصب ممكن. قد يكون صغيراً، لكنه صادق. وقد يكون خفياً، لكنه عظيم عند الله.

رُبَّ عمل قليل حفظ قلباً من موت طويل.

والنصب يصير عبادة حين لا يحتقر صاحبه الصغير. فالآية لا تحدد مقدار النصب، بل تأمر به. والشرع في عمومه يربط التكليف بالاستطاعة. فليس المطلوب أن تحمل ما لا تطيق، بل أن لا تهدر ما تطيق. الفارق كبير بين من يعجز عن الكثير فيفعل القليل، ومن يترك القليل لأنه لا يملك الكثير.

الأول عبد صادق.

والثاني أسير لصورة الكمال.

ومن أعظم مداخل الشيطان على أصحاب المعاني أن يقول لهم: إما أن تعملوا عملاً عظيماً، أو لا تعملوا. فيتركون الممكن انتظاراً للمثالي. أما سورة الشرح فتقول: إذا فرغت، فانصب. أي ادخل في العمل المتاح، في واجب الوقت،

في الباب المفتوح، في اليسر المصاحب. لا تنتظر أن تتبدل الحياة كلها لتقوم بما تستطيع الآن.

وهنا يعود معنى {مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا}: داخل كل عسر مساحة عمل. قد تكون ضيقة، لكنها موجودة. والعبد الصادق يبدأ منها.

ثم إن التعب إذا صار عبادة صار له أدب مع الناس. لا يكثر صاحبه من التذكير بتعبه، ولا يجعل نصبه دينًا في أعناق الخلق. يعمل، ويطلب من الله القبول، ويشكر من أعانه، ولا يذل الناس بحاجته إلى الاعتراف. لأن من نصب إلى الله، لم يحتج أن يحاكم كل الناس إلى مقدار تقديرهم له.

نعم، النفس تتألم من الجحود. هذا بشري. لكن الفرق أن الألم لا يتحول إلى فساد في النية. لا يقول: ما داموا لم يعرفوا قدري، فلن أعمل. لأنه لم يكن يعمل لأقدارهم أولًا. كان يعمل لله، ثم يرجو أن ينفع الله به.

ومن هنا يثمر النصب العبادي خلقًا كريمًا: الصبر على جحود الناس، دون احتقارهم. والفرح بتقديرهم، دون عبادة تقديرهم. والتألم من أذاهم، دون أن يصير الأذى سيد القرار.

هذا ميزان لا يملكه إلا من جعل رغبته إلى الله.

وفي النهاية، فإن قوله: {فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ} يضع الإنسان أمام حقيقة لا مهرب منها: الحياة لا تخلو من التعب، فاختر التعب الذي يطهرك. إن لم تتعب في الحق، تعبت في الباطل. إن لم تتعب في بناء نفسك، تعبت في ترميم

خرابها. إن لم تتعب في عبادة الله، تعبت في عبودية ما سواه. الإنسان لا ينجو من الكلفة، لكنه يستطيع أن يختار كلفة لها معنى.

وهذا هو الفارق بين التعب الشريف والتعب الضائع.

التعب الشريف يترك فيك نورًا.

والتعب الضائع يترك فيك غبارًا.

التعب الشريف يزيدك قربًا.

والتعب الضائع يزيدك قلقًا.

التعب الشريف يجعلك أرحم.

والتعب الضائع يجعلك أضيق.

التعب الشريف إذا خفي، بقي محفوظًا عند الله.

والتعب الضائع إذا لم يره الناس، شعر صاحبه أنه بلا قيمة.

فسل نفسك بعد كل نصب: ماذا ترك في قلبي؟ هل زادني رغبة إلى الله، أم رغبة إلى نفسي؟ هل جعلني أصدق، أم جعلني أطلب التصفيق؟ هل قربني من واجبي، أم هرب بي منه؟ هل فتح صدري، أم ملأه مرارة؟

بهذه المحاسبة يصير التعب بابًا إلى الله.

وسورة الشرح لا تريد منك أن تتعب فقط. تريد أن يتطهر تعبك. تريد أن يخرج من دائرة النفس إلى دائرة العبودية. تريد أن يكون كل فراغ بداية نصب، وكل نصب طريق رغبة، وكل رغبة متجهة إلى الرب.

وبهذا يصبح التعب بعد التعب ليس دوراً في حلقة مغلقة، بل صعوداً في سلم خفي. من عمل إلى عمل، ومن معنى إلى معنى، ومن درجة إلى درجة، حتى يلقي العبد ربه وقد جعل من أوقاته جسوراً إليه، لا فراغات بينه وبينه.

وهكذا نفهم أن النصب في السورة ليس عقوبة بعد اليسر، بل شكر اليسر. وليس قسوة بعد الشرح، بل ثمرة الشرح. وليس حملاً يكسر الظهر، بل حملاً يرفعه. وليس فراغاً من الراحة، بل امتلاءً بالوجهة.

فإذا فرغت، فانصب.

لا لأنك لا تحتاج إلى راحة، بل لأن راحتك نفسها ينبغي أن تعود بك إلى الله.

ولا لأن الطريق بلا عسر، بل لأن مع العسر يسراً يكفيك لتقوم. ولا لأن العمل هو الغاية، بل لأن ربك هو الغاية، والعمل طريق إليه.

ومن هنا يستعد القلب للآية الأخيرة، الآية التي تجمع كل الخيوط، وتحرس كل المنن، وتمنح النصب روحه الأخيرة: {وَالِى رَبِّكَ فَارْغَبْ}.

الفصل الرابع عشر

{وَالِى رَبِّكَ فَارْغَبْ}: آخر الطريق ليس الإنجاز بل الله

تختتم سورة الشرح بهذا الأمر الجامع: {وَالِى رَبِّكَ فَارْغَبْ}.

وهنا تبلغ السورة ذروتها. فقد بدأت بالصدر: {أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ}، ثم مضت إلى الظهر والوزر، ثم إلى الذكر والرفع، ثم إلى العسر واليسر، ثم إلى الفراغ والنصب، ثم انتهت إلى الرب. وكأنها تقول إن كل ما سبق، من شرح ووضع ورفع ويسر وعمل، لا يصح أن يقف عند نفسه. لا ينبغي للصدر المشروح أن يعجب بسعته، ولا للظهر المخفف أن يغتر بخفته، ولا للذكر المرفوع أن يسكن إلى رنينه، ولا لليسر أن يصير قبلة، ولا للنصب أن يتحول إلى صنم من الإنجاز. النهاية الصحيحة لكل ذلك: {وَالِى رَبِّكَ فَارْغَبْ}.

وهذه الآية تحرس السورة كلها من الانحراف.

فالنعمة قد تنحرف إذا لم ترد إلى المنعم.

والعمل قد ينحرف إذا لم يتجه إلى الله.

واليسر قد ينحرف إذا صار مطلوباً لذاته.

والرفع قد ينحرف إذا تحول إلى عشق للذكر.

والنصب قد ينحرف إذا صار إثباتاً للنفس لا عبودية للرب.

لذلك جاءت الخاتمة لا لتضيف معنى أخيرًا فحسب، بل لتعيد كل المعاني السابقة إلى مركزها الأعلى. المركز ليس الصدر، ولا الذكر، ولا اليسر، ولا العمل. المركز هو الله. كل شيء قبله نعمة منه، وكل شيء بعده ينبغي أن يكون رغبة إليه.

والرغبة غير الطلب العابر. الرغبة ميل القلب وانجذابه وطلبه لما يحب. فإذا قيل: {وَالِى رَبِّكَ فَارْغَبْ}، فالمعنى ليس مجرد أن تسأل ربك حاجاتك، مع أن الدعاء داخل في ذلك، بل أن تكون وجهة القلب النهائية إليه؛ أن لا تتبعثر رغباتك في الطرقات حتى تنسى باب الله، وأن لا تقف عند الوسائل كأنها غايات، وأن لا تجعل عطاء الله حجابًا عن الله.

كم من إنسان رغب إلى اليسر، لا إلى ربه.
وكم من إنسان رغب إلى الرفع، لا إلى ربه.
وكم من إنسان رغب إلى ثمرة العمل، لا إلى ربه.
وكم من إنسان رغب إلى زوال العسر، فلما زال بردت علاقته بربه.

سورة الشرح تريد أن تنتزع القلب من هذه التبعثرات. تريد أن تقول له: اطلب اليسر، نعم؛ لكن لا تجعل اليسر ربك الخفي. اطلب الفرج، نعم؛ لكن لا تكن عبد الفرج. اعمل، نعم؛ لكن لا تكن عبد العمل. افرح بالرفع إن جاء من الله، لكن لا تجعل ذكرك معبودك. النهاية: إلى ربك.

والتقديم في الآية بليغ: {وَالِى رَبِّكَ} قبل {فَارْغَبْ}. كأن الجهة مقدمة على الحركة. قبل أن ترغب، صحح إلى أين. فالإنسان قد يكون شديد الرغبة، لكنه

خاطئ الوجهة. قد يملك طاقة، وشوقًا، وحركة، وجهدًا، لكنه يصبها في غير الله، أو يجعل الله وسيلة إلى غيره. وهنا يفسد كل شيء.

ليست المشكلة دائمًا في ضعف الرغبة، بل في انحرافها.

قد يرغب الإنسان بقوة في أن يعرفه الناس.

وقد يرغب بقوة في أن ينتصر لنفسه.

وقد يرغب بقوة في أن يثبت تفوقه.

وقد يرغب بقوة في أن تتشكل الحياة وفق ما يريد.

وقد يرغب بقوة في أن ينجو من كل ألم.

لكن السورة تقول: وجه هذه القوة إلى ربك. لا تقتل الرغبة، بل طهرها. لا

تطفئ حرارة القلب، بل اجعلها صاعدة إلى الله.

وهذا من أدق الفروق في التربية القرآنية: القرآن لا يريد إنسانًا بلا رغبات،

بل إنسانًا مهذب الرغبة. فالرغبة جزء من حياة القلب، لكن إن تُركت بلا

توحيد توزعت، وإن وُجهت إلى الله استقامت. لذلك لم تقل الآية: لا ترغب،

بل قالت: {فَارْغَبْ}. لكن إلى من؟ {إِلَى رَبِّكَ}.

وهذا التوجيه يحفظ إنسانية العبد ولا يتركها فوضى. فالإنسان يريد، ويأمل،

ويحب، ويخاف، وينتظر. لا يطلب منه الوحي أن يصير حجرًا. لكنه يعلمه

أن تكون رغباته كلها تحت سلطان العبودية. أن يريد الدنيا بقدر ما تعينه على

الآخرة، وأن يحب الخلق بمحبة لا تقطع عن الخالق، وأن يفرح باليسر شكرًا

لا غفلة، وأن يحزن في العسر افتقارًا لا اعتراضًا.

{وَالِى رَبِّكَ فَارْغَبْ} تعني أن يكون الله هو القبلة الداخلية لكل حركة.

وهنا تظهر صلة الآية بما قبلها: {فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ}. فالنصب بلا رغبة إلى الله يتحول إلى عمل ثقيل. أما الرغبة بلا نصب فقد تتحول إلى أمنية رخوة. فجاءت الآيتان معًا: اعمل، وارغب. ابذل، واتجه. لا تجعل الرغبة بديلاً عن السعي، ولا تجعل السعي بديلاً عن الرغبة.

العمل يحفظ الرغبة من الوهم.

والرغبة تحفظ العمل من الجفاف.

وهذا توازن عظيم. فهناك من يتكلم عن الحب والرغبة والقرب، لكنه لا يعمل ولا ينصب، فتكون رغبته دعوى بلا برهان. وهناك من يعمل وينصب، لكنه لا يرغب إلى الله، فيتحول عمله إلى قسوة أو عادة أو طلب مكانة. أما السورة فتجمع: {فَانصَبْ} ثم {فَارْغَبْ}.

أي لا تكن حالمًا بلا عمل، ولا عاملاً بلا قلب.

والرغبة إلى الله بعد النصب تعني كذلك أن العبد لا يجعل عمله ثمنًا يطالب به ربه، بل قربانًا يرجو قبوله. هناك فرق بين من يعمل ثم يقول في باطنه: أستحق، ومن يعمل ثم يقول: يا رب تقبل. الأول يرى العمل ملكًا له، والثاني يراه فضلًا من الله عليه. الأول إذا لم ينل ما يريد غضب، والثاني إذا لم ينل ما يريد فوّض، لأنه يعرف أن العمل عبودية، لا صفقة إجبارية مع القدر.

كثير من المرارة الروحية تأتي من تحويل العمل إلى مطالبة. يقول الإنسان: لقد صبرت، فلماذا لم يحدث كذا؟ لقد دعوت، فلماذا لم يعطني الله ما أردت؟

لقد تعبْتُ، فلماذا لم يرفعني الناس؟ وهذا السؤال قد يبدأ طبيعياً من وجع بشري، لكنه إذا تمادى صار خطراً. لأن العبد لا يشتري الله بعبادته، بل يتقرب إليه بفضلِهِ، والله سبحانه غني عن العالمين، رحيم بعباده، حكيم في عطائه ومنعه.

{وَالِى رَبِّكَ فَارْغَبْ} تخرج العمل من روح المساومة إلى روح الافتقار.

تقول لك: بعد أن تنصب، لا تقف عند نصبك. لا تنتظر إليه كأنه ضمان ذاتي. ارجب إلى ربك، لا إلى عملك. استند إلى فضله، لا إلى تعبك. أسأله القبول، لا مجرد النتيجة. فكم من عمل كبير صغرت النية، وكم من عمل صغير عظّمه الإخلاص.

والرغبة إلى الله هي التي تجعل العبد حرّاً من النتائج. لا بمعنى أن لا يهتم لها، بل بمعنى أن لا يُستعبد بها. يعمل لأحسن نتيجة ممكنة، لكنه لا يجعل النتيجة إلهاً يحاكم به قيمة نفسه. إن تحققت، شكر. وإن تأخرت، صبر. وإن جاءت على غير ما خطط، تعلم وفوض. لأن رغبته الأعمق ليست إلى النتيجة، بل إلى ربه.

وهذا يحرر الإنسان العامل من قلق قاتل. فالأعمال الكبرى لا تُحتمل إذا كان القلب معلقاً بالنتائج وحدها. الكاتب الذي لا يرغب إلا إلى انتشار نصه، سيتحول إلى عبد للأرقام. والداعية الذي لا يرغب إلا إلى استجابة الناس، سيحترق حين يعرضون. والمصلح الذي لا يرغب إلا إلى رؤية الثمرة العاجلة، سيبأس إذا طال الطريق. أما من رغب إلى ربه، فإنه يعمل للثمرة، لكنه لا ينهار إذا تأخرت، لأنه يعلم أن الله لا يضيع أجر المحسنين.

الرغبة إلى الله لا تلغي حب الثمرة.
لكنها تمنع الثمرة من أن تصير ربًّا.

ومن هنا نفهم أن الآية الأخيرة هي علاج لفتنة الإنجاز. بعد {فَأَنْصَبْ} قد يشعر الإنسان أنه صنع شيئًا. فإذا صنع شيئًا، بدأ خطر النفس. لذلك جاء الأمر: {وَالِى رَبِّكَ فَارْغَبْ}. أي لا تنته إلى ما صنعت. انته إلى من وفقك أن تصنع. لا تطف حول عملك. اخرج منه إلى الله. لا تجعل النصب مرآة تعبد فيها صورتك، بل محرابًا تعرف فيه فقرك.

ما أشد حاجة العاملين إلى هذه الآية.

فكم من عمل صالح أفسده الالتفات. وكم من أثر طيب نُزِعَ بركته حين صار صاحبه يتغذى عليه. وكم من موهبة انحرفت حين لم تعد ترغب إلى الله، بل إلى تصفيق الخلق. وكم من قلب بدأ خالصًا، ثم سرقتة حلاوة الظهور.

الآية الأخيرة تقطع الطريق على هذه السرقة.

كلما نصبت، ارغب.

كلما أعطيت، ارغب.

كلما فُتحت لك أبواب، ارغب.

كلما رُفِعَ لك ذكر، ارغب.

كلما انتهيت من عمل، لا تسكن إليه.

ارغب إلى ربك.

وفي الآية اسم {رَبِّكَ} لا غيره من الأسماء في هذا الموضع، وله دلالة العميقة. الرب هو المربي، المدبر، المالك، المنعم، الذي يتولى عبده طوراً بعد طور. والسورة كلها تجليات ربوبية: شرح الصدر تربية، وضع الوزر تربية، رفع الذكر تربية، جعل اليسر مع العسر تربية، الأمر بالنصب تربية. فكان الختام: إلى ربك الذي ربّاك بكل هذا، فارغب.

كانها تقول: الذي شرح صدرك هو ربك.

والذي وضع وزرك هو ربك.

والذي رفع ذكرك هو ربك.

والذي جعل مع عسرك يسراً هو ربك.

والذي أمرك بالنصب هو ربك.

فلا تجعل رغبتك تخرج عن باب ربك.

وهذا يعمق الثقة. فأنت لا ترغب إلى مجهول، ولا إلى بعيد عنك، ولا إلى من لا يعلم أطوارك، بل إلى ربك. إلى من تولى أمرك قبل أن تعرف كيف تطلب. إلى من صنع فيك من النعم ما لم تصنعه لنفسك. إلى من يعلم صدرك وظهرك وذكرك وعسرك ويسرك وفراغك ونصبك.

الرغبة إلى الرب ليست هروباً من الحياة، بل رجوع إلى مصدر الحياة.

ومن لطائف الآية أنها تختتم بالطلب بعد العمل، لا بالعمل وحده. لأن العبد مهما عمل، يبقى محتاجاً إلى الله. لا تغنيه طاعته عن ربه. ولا يغنيه صبره عن ربه. ولا يغنيه علمه عن ربه. بل كلما ازداد عملاً ازداد علماً بحاجته.

فالأعمال الصالحة لا تجعل العبد مستقلاً، بل تكشف له مقدار افتقاره إلى القبول والمدد والثبات.

ومن ظن أن العبادة تغنيه عن الافتقار لم يفقه العبادة.

العبادة الحقيقية تزيد الفقر إلى الله. لأن العبد يرى فيها عيوبه. يرى نقص النية، وضعف الخشوع، وتخلل الغفلة، وحاجة العمل إلى ستر الله قبل قبوله. فإذا فرغ ونصب، لم يقل: ها أنا ذا. بل قال: يا رب، أنت المقصود، وأنت المستعان، وأنت المرجو.

وهذا هو أدب الكبار.

كلما عملوا خافوا.

وكلما أعطوا شكروا.

وكلما رُفِعوا تواضعوا.

وكلما فرغوا نصبوا.

وكلما نصبوا رغبوا إلى ربهم.

أما الصغار فيقفون عند أعمالهم طويلاً، يعدونها، ويذكرونها، ويطلبون بها المكانة في قلوب الناس. ولهذا يتعبون من الجحود، ويتحسسون من النقد، وينهارون إذا لم يروا أثراً سريعاً. لأن رغبتهم لم تُصَفَّ بعد. يريدون الله، نعم، لكنهم يريدون معه أشياء كثيرة بطريقة تراحمه في القلب.

والآية لا تطرد هذه الرغبات بضربة واحدة، لكنها تعيد ترتيبها.

اجعل الله أولاً وآخرًا.

خذ من الدنيا ما يرضيه.

وافرح باليسر إذا قربك.

وافرح بالذكر إذا كان في الحق.

وافرح بالإنجاز إذا كان طريق شكر.

لكن لا تجعل شيئاً من ذلك قبلتك.

{وَالِى رَبِّكَ فَارْغَبْ} هي آية توحيد الرغبة.

وتوحيد الرغبة لا يعني أن لا تحب شيئاً غير الله، بل أن لا تحب شيئاً محبة تقطعك عن الله، ولا تطلب شيئاً طلباً يفسد عبوديتك لله، ولا تجعل شيئاً غاية نهائية مع الله. تحب الناس بالله، وتعمل لله، وتطلب اليسر من الله، وتفرح بالنعم من الله، ثم ترد ذلك كله إلى الله.

بهذا لا تتبعثر النفس.

والتبعثر مرض عميق. أن يريد القلب كل شيء في وقت واحد، وأن يتجه إلى كل باب، وأن يطلب من الخلق ما لا يملكون، وأن يجعل كل نتيجة شرطاً لسعادته. فإذا لم تتحقق رغبة، انكسر. وإذا تحققت، ظهرت رغبة أخرى. وهكذا يمضي ممزقاً.

أما من رغب إلى ربه، فقد وجد مركزه. لا يعني أنه بلا مطالب، لكنه يملك مطلباً أعلى تنتظم تحته المطالب. فإذا جاءت الدنيا، لم تسكره. وإذا فاتته، لم تهلكه. وإذا مدحه الناس، لم يعبدتهم. وإذا ذموه، لم يجعلهم آلهة تحكم مصيره. لأنه يعرف إلى أين تتجه رغبته.

الرغبة إلى الله تمنح القلب محورًا.

ومن دون هذا المحور، يصبح حتى الدين نفسه قابلاً للتبعثر في الإنسان. يطلب العلم ليغلب. يعبد ليرى. يكتب ليشتهر. يدعو لينتصر لذاته. ينصر الحق بروح انتقامية. يصبر ليقال صبور. كل هذا يحدث حين تتحرف الرغبة. العمل في ظاهره ديني، لكن القلب متجه إلى غير الله.

لذلك جاءت الآية في الختام، لأنها ميزان ما قبلها كله. لا يكفي أن تنصب؛ إلى من ترغب؟ لا يكفي أن تفرغ من عمل وتبدأ آخر؛ لأي وجهة؟ لا يكفي أن تعرف العسر واليسر؛ ماذا صنعت بك المعرفة؟ لا يكفي أن يرفع الله ذكرك؛ هل زادتك الرفعة رغبة إليه أم رغبة في نفسك؟

وهنا يصير كل شيء مكشوفًا.

فقد ينصب اثنان في العمل نفسه، لكن أحدهما إلى الله، والآخر إلى صورته. وقد يكتبان الكلام نفسه، لكن قلب أحدهما يريد وجه الله، والآخر يريد العلو. وقد يصبران الصبر نفسه في الظاهر، لكن أحدهما ينتظر رضا الله، والآخر ينتظر أن يعترف الناس بتضحيته.

الظاهر واحد، والرغبة تفصل بين الطريقين.

ومن هنا كانت الرغبة من أعمال القلوب الكبرى. لا يراها الناس، لكنها تقرر معنى العمل. الناس يرون النصب، ولا يرون إلى أين يتجه. يرون الجهد، ولا يرون قلبه. يرون الذكر المرفوع، ولا يرون هل صار صاحبه أعبد أم أعجب. أما الله فيعلم السر وأخفى.

وهذا يجعل العبد أكثر خوفاً على داخله من خوفه على مظهره. لا يكتفي بأن يبدو عاملاً، بل يسأل: إلى من أُرغب؟ لا يكتفي بأن يكثر عمله، بل يسأل: هل هذا يقربني أم يضخم نفسي؟ لا يكتفي بأن ينفع الناس، بل يسأل: هل بقي قلبي مع الله؟

وهذه المحاسبة ليست وسواساً، بل حياة.

لأن القلب إذا تُرك بلا مراجعة سرقة النعم. قد يسرقه اليسر كما يسرقه العسر. العسر يسرقه باليأس، واليسر يسرقه بالغفلة. الرفع يسرقه بالعجب، والوضع يسرقه بالانكسار المر. الفراغ يسرقه بالتفاهة، والنصب يسرقه بالإنجاز. ولا يحرسه من هذه السرقات إلا أن يظل راغباً إلى الله.

فالرغبة إلى الله ليست خاتمة جميلة فقط، بل حراسة مستمرة.

تحرص الصدر المشروح من أن يمتلئ بغير الله.
وتحرص الظهر المخفف من أن يحمل باطلاً جديداً.
وتحرص الذكر المرفوع من أن يتحول إلى فتنة.
وتحرص اليسر من الغفلة.
وتحرص النصب من الرياء.
وتحرص الفراغ من العبث.

ومن أعمق معاني الآية أنها تعيد تعريف النجاح. النجاح ليس أن ينشر صدرك فقط، ولا أن يوضع وزرك فقط، ولا أن يرفع ذكرك فقط، ولا أن ترى اليسر فقط، ولا أن تعمل فقط. النجاح أن ينتهي بك كل ذلك إلى الله. فإن

انشرح صدرك ولم ترغب إلى الله، كان الشرح ناقص الثمرة. وإن وُضع وزرك ثم رغبت إلى الدنيا وحدها، ضاعت الخفة. وإن رُفع ذكرك ثم رغبت إلى الذكر، صار الرفع خطرًا. وإن رأيت اليسر ثم نسيت رب اليسر، صار اليسر حجابًا. وإن نصبت ثم لم ترغب إلى الله، صار النصب تبعًا بلا روح.

النهاية هي التي تكشف حقيقة الطريق.

والنهاية هنا ليست حدثًا زمنيًا فقط، بل وجهة دائمة. في كل مرحلة اسأل: أين انتهى قلبي؟ بعد النعمة، أين انتهى؟ بعد البلاء، أين انتهى؟ بعد العمل، أين انتهى؟ بعد المدح، أين انتهى؟ بعد الفشل، أين انتهى؟ إن انتهى إلى الله، فقد نجا. وإن انتهى إلى نفسه، فليعد.

{وَالِى رَبِّكَ فَارْغَبْ} تعني: اجعل الرجوع مستمرًا.

كلما خرج قلبك إلى شيء، رده.

كلما عظمت النتيجة في عينك، رده.

كلما كبر الناس في قلبك، رده.

كلما ضاق صدرك بالعسر، رده.

كلما أغراك اليسر بالغفلة، رده.

كلما أعجبك نصبك، رده.

وهذه المجاهدة لا تنتهي؛ لأن الرغبة كالماء، إن لم تُحفظ في مجراها تسربت. والعبد يحتاج كل يوم أن يعيد توجيه قلبه. لا يكفي أنه رغب إلى الله أمس. فقد

تأتي اليوم نعمة جديدة، أو فتنة جديدة، أو مدح جديد، أو ألم جديد، فتختبر الرغبة من جديد.

ولذلك كانت الآية بصيغة الأمر: {فَارْغَبْ}. كأنها فعل متجدد. ارجب الآن، وبعد الآن، وفي كل طور. لا تجعل الرغبة ذكرى قديمة. جدد وجهتك.

وفي حياة الإنسان لحظات تظهر فيها حقيقة الرغبة بوضوح. عند العسر: هل يرغب إلى الله أم إلى مجرد الخلاص؟ عند اليسر: هل يشكر الله أم ينساه؟ عند الرفع: هل يتواضع أم ينتفخ؟ عند الفراغ: هل ينصب لله أم يتبدد؟ عند النصب: هل يطلب الله أم يطلب نفسه؟

سورة الشرح تضع هذه اللحظات كلها في آية واحدة.

وإذا أردنا أن نختصرها قلنا: لا تجعل شيئاً من الطريق يحجبك عن رب الطريق.

لا الشرح.

ولا الوضع.

ولا الرفع.

ولا اليسر.

ولا النصب.

ولا الذكر.

ولا العمل.

كلها منازل، والله هو المقصود.

وهذا المعنى إذا استقر، صار الإنسان أصفى في كل شيء. إذا كتب، كتب وهو يعلم أن الكلمة ليست ملكاً له. إذا تكلم، تكلم بخوف من الله. إذا نجح، لم يسكر. إذا تأخر، لم يقنط. إذا مدح، لم يجعل المدح غذاءه. إذا ذم، لم يجعل الذم نهايته. إذا تعب، لم يمت. إذا استراح، لم يغفل.

لأنه في كل ذلك راغب إلى ربه.

وليس أجمل من أن يختم الوحي سورة الشرح بهذا. فبعد أن يوسع الصدر، لا يتركه في سعته. وبعد أن يضع الوزر، لا يترك الظهر في خفته. وبعد أن يرفع الذكر، لا يترك الاسم في لمعانه. وبعد أن يكرر اليسر، لا يترك النفس في رجائها المجرد. وبعد أن يأمر بالنصب، لا يترك العمل في صلابته. بل يأخذ الجميع إلى الله.

هذه هي الرحمة الكاملة: أن لا يعطيك الله ما يلهيك عنه، بل يعطيك ما يدلك عليه.

فإن شرح صدرك، فليكن الشرح باب رغبة.

وإن وضع وزرك، فلتكن الخفة باب رغبة.

وإن رفع ذكرك، فليكن الرفع باب رغبة.

وإن جعل مع عسرك يسراً، فليكن اليسر باب رغبة.

وإن فرغت ونصبت، فليكن النصب باب رغبة.

فإذا صار كل شيء بابًا إلى الله، لم يعد في الحياة حدث ضائع. حتى العسر يدخل في المعنى. حتى التعب يصبح طريقًا. حتى الفراغ يصير فرصة. حتى اليسر لا يفسدك. حتى الذكر المرفوع لا يسرقك.

وهنا يكون القلب قد فهم سورة الشرح.

لا لأن صدره لم يعد يضيق أبدًا، بل لأنه عرف إلى أين يذهب بضيق صدره.

ولا لأنه لم يعد يحمل شيئًا، بل لأنه عرف من يضع الأوزار.

ولا لأنه صار فوق العسر، بل لأنه عرف اليسر معه.

ولا لأنه ترك العمل، بل لأنه نصب.

ولا لأنه عبد العمل، بل لأنه رغب إلى ربه.

وهذا هو الإنسان الذي تريده السورة: إنسان يبدأ من نعمة الله، ويمشي بوعد

الله، ويعمل بأمر الله، وينتهي إلى الله.

{وَالِى رَبِّكَ فَارْغَبْ} ليست خاتمة سورة فقط.

إنها خاتمة الطريق كله.

الفصل الخامس عشر

خاتمة السورة: القلب المشروح لا يهرب من العسر، بل يحمله بنور

إذا تأملنا سورة الشرح من أولها إلى آخرها، وجدنا أنها لا تصنع إنساناً هارباً من الحياة، ولا قلباً يبحث عن طمأنينة رخوة خارج التكليف، ولا مؤمناً ينتظر أن تخلو الطريق من العسر حتى يصدق الوعد، بل تصنع قلباً آخر: قلباً مشروحاً، يعرف الثقل ولا يعبده، يرى العسر ولا يستسلم له، يفرغ من عمل فيقوم إلى عمل، ثم لا يجعل العمل غايته الأخيرة، بل يرد رغبته إلى الله.

إنها سورة قصيرة، لكنها تبني إنساناً كامل الاتجاه.

تبدأ من الداخل؛ لأن الداخل هو ميدان الحسم الأول.

فلا معنى لطريق واسع مع صدر ضيق.

ولا قيمة ليسر ظاهر مع قلب لا يحسن رؤيته.

ولا أمان في رفع الذكر إذا كان الصدر مزدحمًا بالنفس.

ولا بركة في النصب إذا لم ينته إلى الله.

لذلك كان البدء: {أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ}.

كأن السورة تقول: قبل أن تسأل عن الطريق، اسأل عن الصدر الذي يمشي فيه. قبل أن تفتش عن تغيير العالم، تأمل ما صنع الله فيك. قبل أن تقيس العسر بحجمه الخارجي، انظر: هل وسّع داخلك له؟

فالقلب المشروح لا يعني القلب الذي لا يتألم. هذه فكرة سطحية عن السكينة. القلب المشروح يتألم، لكنه لا يفسر الألم تفسيراً يقطع عن الله. يحزن، لكنه لا يجعل الحزن عقيدة. يتعب، لكنه لا يحول التعب إلى اعتراض. يواجه العسر، لكنه لا يسمح للعسر أن يقول الكلمة الأخيرة.

الصدر المشروح ليس صدرًا بلا غيوم.

بل صدر يعرف أن فوق الغيوم تدبيرًا.

ولا نقول ذلك على معنى تشبيه الله بخلقه، تعالى الله، فهو سبحانه ليس كمثله شيء، بل على معنى أن القلب المؤمن لا يقرأ ظلمة اللحظة بمعزل عن علم الله وحكمته ورحمته.

ثم تمضي السورة إلى الظهر: {وَوَضَعْنَا عَنكَ وَزْرَكَ . الَّذِي أَنْقَضَ ظَهْرَكَ}. وهنا تعترف السورة بالثقل. لا تجامل التجربة البشرية. لا تقول إن الطريق بلا حمل. بل تقول إن هناك حملاً قد ينقض الظهر، ولكن الله يضع. وهذه من أعظم أبواب الرجاء: أن ما أثقل الإنسان ليس أقوى من رحمة الله، وأن الظهر الذي انحنى لا يلزم أن يبقى محكوماً بانحنائه.

كم من إنسان يظن أن ثقله صار قدره النهائي.

كم من ذاكرة تحولت إلى سلسلة.

كم من خطأ قديم صار وطنًا للندم.

كم من حمل خفي صار تعريفًا للنفس.

فتأتي السورة لتقول: لا تجعل ما أنقض ظهرك إلهاً خفياً يحكم مستقبلك. الله يضع الأوزار. يخفف ما لا يراه الناس. يرفع ما استقر في العمق. يفتح للعبد بعد الثقل مشياً جديداً.

لكنها لا تفعل ذلك لتصنع عبداً بلا عمل. إنها تضع الوزر لتعيد القدرة على الحمل الشريف. هناك حمل يكسر، وهناك حمل يرفع. هناك ثقل يقطعك عن الله، وهناك نصب يوصلك إليه. والسورة تنقلك من الأول إلى الثاني.

ثم يأتي الرفع: {وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ}.

وهذا الرفع في مقام النبي ﷺ رفع لا يلحقه فيه أحد، رفع محفوظ في بنية الدين، مقرون بالشهادة والأذان والصلاة والمحبة والاتباع. لكنه، في الوقت نفسه، يربينا على معنى الرفعة كما يريدنا الله: الرفعة ليست ضجيجاً، وليست صناعة صورة، وليست مجرد شيوع اسم. الرفعة المباركة هي أن يرفع الله الذكر بالحق، وللحق، وفي موضع لا يفسد صاحبه.

ومن هنا نفهم أن الرفع إذا لم يسبقه شرح الصدر ووضع الوزر، صار خطراً. فالظهور فوق صدر ضيق فتنة. والذكر فوق ظهر منقض عبء جديد. أما الرفع الرباني المحفوف بالتربية، فهو كرامة ومسؤولية.

وسورة الشرح لا تجعل الرفعة نهاية. بعد الرفع تأتي مباشرة حقيقة العسر واليسر.

كأنها تقول: حتى بعد الرفع، لا تظن أن الطريق صار بلا عسر. فالنبي ﷺ هو أرفع الخلق ذكراً، ومع ذلك حمل من العسر ما حمل.

إذن الرفع لا يعني الخروج من سنن الابتلاء، بل يعني أن الله يحفظ المعنى وسط الابتلاء.

ثم يأتي القانون المزدوج، المكرر، المثبت:
{فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا . إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا}.

وهنا تبلغ السورة قلب المواسة. لكنها مواسة واعية. لا تكذب على العبد. لا تقول له: لا عسر. بل تقول: العسر موجود، لكنه ليس وحده. ومعه يسر. واليسر ليس دائماً مؤجلاً إلى نهاية الطريق، بل قد يكون مصاحباً له: في الصبر، في الفهم، في الدعاء، في الحفظ، في الأجر، في النجاة من شر أكبر، في انكشاف الوهم، في سكينه صغيرة لا يعرف قيمتها إلا من ذاق اختناق الخوف.

كلمة {مَعَ} وحدها تعيد بناء الرؤية.

فالإنسان حين يتألم يؤجل كل خير إلى ما بعد الألم. يقول: سأحيا حين ينتهي هذا. سأطمئن حين يزول هذا. سأشكر حين يأتي الفرج. لكن السورة تعلمه أن لا يجعل حياته كلها معلقة بنقطة مستقبلية. هناك يسر الآن. قليلاً كان أو خفياً، لكنه موجود. ابحث عنه. لا لتلغي العسر، بل لتمنعه من أن يحتكر بصرك.

وهذا من أعظم ما يحتاجه القلب في المحن: ألا يقرأ حياته من موضع الجرح وحده.

الجرح صادق، لكنه ليس كامل الحقيقة.

الفقد موجه، لكنه ليس كل الموجود.

العسر حاضر، لكنه ليس وحده في المجلس.

هناك يسر يجلس معه، وإن كان أهدأ صوتًا.

ثم لا تترك السورة القلب عند هذه الطمأنينة. لا تقول له: ما دمت عرفت اليسر فاستلق. بل تقول: {فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ}.

وهذه الآية تكشف أن سورة الشرح ليست مخدرًا روحيًا. إنها بعث. كل ما سبق من مواساة وتخفيف وتثبيت إنما يقود إلى القيام. فاليسر ليس للكسل، والشرح ليس للانسحاب، ووضع الوزر ليس لفراغ طويل، ورفع الذكر ليس للزينة. كلها ممن تؤهل للنصب.

الفراغ في حياة صاحب الرسالة ليس نهاية. إنه ممر.

إذا فرغ من شأن، دخل في شأن.

إذا انتهى من عمل، قام إلى آخر.

إذا خف عنه حمل، حمل ما يرضي الله.

إذا خرج من عسر، شكر بنصب جديد.

إذا رأى يسرًا، لم يجعله نومًا، بل زادًا.

ولكن حتى النصب، وهو عظيم، لا يُترك وحده؛ لأن العمل إذا تُرك وحده صار جفافًا أو عجبًا أو عبودية للإنجاز. لذلك تختتم السورة: {وَالِى رَبِّكَ فَارْغَبْ}.

هذه الآية الأخيرة هي مفتاح النجاة من فتنة كل ما قبلها.
إذا شُرح صدرك، فلا ترغب إلى سعة صدرك، بل إلى ربك.
إذا وُضع وزرك، فلا ترغب إلى الخفة وحدها، بل إلى ربك.
إذا رُفع ذكرك، فلا ترغب إلى ذكرك، بل إلى ربك.
إذا جاء اليسر، فلا ترغب إلى اليسر أكثر من رب اليسر.
إذا نصبت، فلا ترغب إلى عملك، بل إلى ربك.

إنها آية توحيد الوجهة.

فالإنسان قد ينجو من العسر ثم يسقط في اليسر. وقد ينجو من الخفاء ثم يسقط في الرفع. وقد ينجو من القعود ثم يسقط في عبادة العمل. فلا يحرسه إلا أن تكون رغبته إلى الله. هذا هو قفل السورة. لا قفلاً يغلق المعنى، بل قفلاً يحفظه من السرقة.

ومن هنا نستطيع أن نقول إن سورة الشرح ليست سورة الضيق فقط، بل سورة ما بعد الضيق أيضاً. كثيرون يعرفون كيف يصرخون في العسر، لكنهم لا يعرفون كيف يتأدبون في اليسر. يعرفون الدعاء عند الانكسار، لكنهم ينسون الرغبة إلى الله بعد الإنجاز. يعرفون الله وهم مثقلون، فإذا خف الحمل تفرقوا في الطرقات.

أما سورة الشرح فتربي القلب في الحالين:

في العسر: لا تيأس.

في اليسر: لا تغفل.

في الفراغ: لا تتبدد.

في العمل: لا تعبد عملك.

في الرفع: لا تغتر.

في كل حال: إلى ربك فارغب.

وهذا هو الجمال الصارم في السورة: حنان لا يرخيك، وأمر لا يقسّيك.

تضع يدها على الصدر، ثم تدفعه إلى القيام.

تقر بوجع الظهر، ثم تعلمه النصب الشريف.

تعد باليسر، ثم تمنع اليسر من أن يتحول إلى عطالة.

ترفع الذكر، ثم ترد القلب إلى الله.

فالقلب المشروح، في نهاية السورة، ليس قلباً بلا عسر. بل قلب يحمل العسر

بنور. يرى البلاء، لكنه يرى معه وعد الله. يعرف أنه ضعيف، لكنه يعرف

باب القوة. يفرغ، لكنه لا يذوب في الفراغ. يعمل، لكنه لا ينتهي إلى العمل.

يُعطي، لكنه لا ينسى المعطي. يُرفع، لكنه لا ينسى أنه عبد.

وهذا هو جوهر السورة: صناعة العبد المتزن.

عبد لا يسحقه العسر؛ لأن معه يسراً.

ولا يفسده اليسر؛ لأنه إلى ربه يرغب.

ولا يحبسه الفراغ؛ لأنه إذا فرغ نصب.

ولا يغره العمل؛ لأنه يعلم أن القبول من الله.

ولا ينهزم بالثقل؛ لأنه عرف أن الله يضع الأوزار.

ولا يطلب الرفع من الناس؛ لأنه يعلم أن الرفع الحق من الله.

إن سورة الشرح، بهذا المعنى، مدرسة كاملة في فقه الطريق. الطريق ليس خطأً مستقيماً من الراحة إلى الراحة. إنه شرح، ثم حمل، ثم وضع، ثم رفع، ثم عسر ويسر، ثم فراغ ونصب، ثم رغبة. وكل مرحلة فيها اختبار. فمن فقهها لم يعد يسأل فقط: متى أرتاح؟ بل صار يسأل: كيف أكون عبداً في هذا الموضع؟

وهذا السؤال هو علامة النضج.

الطفل الروحي يسأل دائماً: متى ينتهي ما أكره؟
أما القلب الذي ربه سورة الشرح فيسأل: ماذا يريد الله مني هنا؟
ثم يسأل بعد ذلك الفرج، لا اعتراضاً، بل افتقاراً.

ولا يعني هذا أن الإنسان لا يتمنى العافية. بل العافية نعمة، وسؤالها من كمال الفقه. لكن إذا وقع العسر، لم يقرأه المؤمن كأنه طرد من الرحمة. وإذا جاء اليسر، لم يقرأه كأنه إذن بالغفلة. وإذا فرغ، لم يظن أن الحياة انتهت. وإذا نصب، لم يظن أن النصب بذاته هو المقصد.

كل شيء في السورة يرد الإنسان إلى موضعه: عبد بين يدي ربه.

ولعل أجمل ما في السورة أنها لا تطلب من الإنسان أن يكون فوق بشريته، بل أن يكون بشراً موصولاً بالله. بشر له صدر يشرح، وظهر يثقل، وذكر يرفع، وعسر يضغط، ويسر يسنده، وفراغ يتهدده، ونصب ينهض به، ورغبة تؤويه إلى الله.

إنها لا تلغي الإنسان لتصنع قديسًا جامدًا، بل تهذب الإنسان ليصير عبدًا رباني الاتجاه.

ومن هنا كانت سورة الشرح من أكثر السور قربًا من أصحاب الرسائل الصغيرة والكبيرة؛ كل من يحمل كلمة، أو مشروعًا، أو بيتًا، أو أمانة، أو همًا، أو إصلاحًا، أو علمًا، أو توبة، أو صبرًا طويلًا. كل هؤلاء يحتاجونها. ليس فقط في لحظة الانقباض، بل في كل مراحل الطريق.

يحتاجها الكاتب حين يضيق صدره من ثقل المعنى.

ويحتاجها الداعية حين يرى إعراض الناس.

ويحتاجها المربي حين يطول صبره.

ويحتاجها المظلوم حين يظن أن العسر وحده.

ويحتاجها صاحب اليسر حين يخاف على قلبه من الغفلة.

ويحتاجها العامل حين يفرغ من عمل ويخشى أن يتبدد.

ويحتاجها كل من رُفِعَ له ذكر حتى لا ينسى أن الرفع أمانة.

إنها سورة تصحب الإنسان لا كمسكن مؤقت، بل كبوصلة.

إذا ضاق: عادت به إلى الشرح.

إذا ثقل: عادت به إلى الوضع.

إذا خفي: عادت به إلى الرفع.

إذا تألم: عادت به إلى اليسر.

إذا فرغ: عادت به إلى النصب.

إذا عمل: عادت به إلى الرغبة.

فلا عجب أن يكون أثرها في القلب واسعاً مع قصرها؛ لأن القرآن لا يقاس بعدد الآيات، بل بعمق النور الذي تحمله الآية. قد تكون السورة ثمانية آيات، لكنها تفتح من الإنسان ثمانية أبواب: باب السعة، باب التخفيف، باب التكريم، باب الرجاء، باب اليقين، باب العمل، باب الإخلاص، باب العودة إلى الله.

وفي النهاية، لا تقول سورة الشرح للعبد: لن تتعب.

بل تقول له: لن يكون تعبك بلا رب.

لا تقول له: لن تحمل.

بل تقول له: هناك من يضع عنك ما يثقل ظهرك.

لا تقول له: لن يأتي عسر.

بل تقول: معه يسر.

لا تقول له: إذا فرغت فانقطع.

بل تقول: فانصب.

لا تقول له: انته إلى إنجازك.

بل تقول: إلى ربك فارغب.

وهذا هو الفرق بين الراحة السطحية والسكينة القرآنية. الراحة السطحية تريد حذف المشقة. أما السكينة القرآنية فتمنحك معنى يحمل المشقة، ونوراً يرافق العسر، ووجهة تمنع العمل من أن يصير عبئاً أعمى.

فالقلب المشروح لا يهرب من العسر؛ لأنه لم يعد يراه إلهاً مخيفاً.

يحملة بنور، ويمشي.

يتعب، لكنه لا يتعفن.

ينكسر أحيانًا، لكنه يعرف باب الجبر.

يفرغ، لكنه لا يتيه.

ينصب، لكنه لا يعبد نصبه.

يرغب، لكنه لا يبعثر رغبته في الخلق والنتائج.

يرغب إلى ربه.

وهنا يكتمل الدرس.

سورة الشرح ليست أن تقول: يا رب أزل عني كل عسر.
بل أن تقول: يا رب اشرح صدري، وضع وزري، واجعل لي مع عسري
يسرًا، ولا تجعل فراغي غفلة، ولا عملي حجابًا، ولا ذكرني فتنه، واجعل
رغبتي إليك وحدك.

ومن دعا بهذا المعنى، فقد فهم السورة لا بلسانه فقط، بل بطريقه.

الفصل السادس عشر

خاتمة الكتيب: من ضيق الصدر إلى سعة الرسالة

حين نصل إلى آخر هذا الكتيب، لا نكون قد خرجنا من سورة قصيرة إلى شرح مطوّل فحسب، بل نكون قد مررنا على خريطة دقيقة لتربية الإنسان حين يثقل عليه الطريق. سورة الشرح لا تفتح لنا باباً واحداً، بل تفتح سلسلة أبواب متتابعة، وكل باب منها يعالج موضوعاً من مواضع الانكسار أو الغفلة أو التشتت في النفس.

إنها تبدأ من السؤال الذي لا يريد جواب اللسان، بل يقظة القلب: {أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ}

وكان أول ما ينبغي أن يتذكره الإنسان في الطريق ليس ما فقد، ولا ما تأخر، ولا ما ضاق، ولا ما عانده من الناس والظروف، بل ما صنعه الله في داخله. فالنعمة الكبرى قد لا تكون أولاً في تبدل الخارج، بل في اتساع الداخل. قد تبقى الطريق صعبة، ولكن الصدر يُشرح لها. قد يبقى الحمل حاضراً، ولكن الظهر لا يبقى وحده. قد يبقى العسر واقعاً، ولكن اليسر يدخل معه، لا بعده فقط.

هذه السورة تعلمنا أن الهزيمة لا تبدأ دائماً من الخارج. أحياناً تبدأ من ضيق الصدر. من تلك اللحظة التي يصير فيها الإنسان أصغر من مهمته، وأضعف من وعد ربه، وأسرع إلى تصديق خوفه من تصديق هدى الله. فإذا شرح الله

الصدر، لم تتحول الحياة إلى طريق بلا حجارة، لكن السالك لم يعد يتعثر بكل حجر كأنه نهاية العالم.

الصدر المشروح لا يرى العسر إلهاً.

يراه عسرًا فقط.

مخلوقًا.

محدودًا.

داخلًا تحت علم الله وتدبيره.

وهذه وحدها نقلة كبرى في الوعي.

ثم تأتي السورة إلى الثقل: {وَوَضَعْنَا عَنْكَ وِزْرَكَ . الَّذِي أَنْقَضَ ظَهْرَكَ}

وهنا لا تهرب السورة من الحقيقة الخشنة. نعم، هناك حمل ينقض الظهر. هناك أشياء لا تُرى في الوجوه، لكنها تُسمع في العظام. هناك أثقال لا يعرفها المتفرجون، ولا تلتقطها العيون السريعة، ولا يفهمها من يحاكمون الناس من مسافة آمنة. لكن الله يعلم. وهذا العلم ليس علمًا باردًا، بل علم ربوبية ورحمة وتدبير.

الله يعلم موضع الحمل.

ويعلم قدره.

ويعلم كيف صار ثقیلاً.

ويعلم متى يضعه.

ويعلم ما الذي ينبغي أن يبقى منه درسًا، وما الذي ينبغي أن يزول منه قيدًا.

فليس كل ثقل نهاية.

وليس كل ظهر انحنى محكوماً أن يبقى كذلك.

وليس كل وزر أثقل الإنسان أقوى من لطف الله.

وهذه السورة تمنح الإنسان حق الاعتراف بالتعب، لكنها لا تمنحه حق الاستسلام له. تسمح له أن يقول: لقد أنقض ظهري، لكنها تعلمه أن يكمل الجملة: وقد وضعه الله عني أو سيضعه بما شاء من حكمته ورحمته. وهنا يختلف المؤمن عن اليائس. اليائس يتوقف عند الثقل. والمؤمن يراه، لكنه لا ينسى رب الثقل.

ثم تأتي الرفة: {وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ}

وهنا يتبدل المشهد من الداخل المثقل إلى الذكر المرفوع. لكن هذا الانتقال ليس صدفة. فمن شُرح صدره، وُضع وزره، صار الرفع في حقه كرامة لا كارثة. والذكر إذا رفعه الله لا يشبه الذكر الذي تصنعه الضوضاء. فالضوضاء قد ترفع اسمًا يومًا ثم تبتلعه غداً. أما الرفع الرباني فبقاء في الحق، وحفظ للمعنى، ووضع للقبول حيث يشاء الله.

وقد بلغ رفع ذكر النبي ﷺ مقامًا لا يدانيه فيه أحد؛ رفعًا مربوطًا بالتوحيد، وبالشهادة، وبالأذان، وبالصلاة، وبالاتباع، وبالمحبة الصادقة التي لا تغلو ولا تجفو. فهو عبد الله ورسوله، أكرم الخلق، وأكملهم عبودية، وأعظمهم هداية، ولا يكون تعظيمه إلا بما يوافق توحيد الله وطاعته.

ومن هذه الآية يتعلم كل صاحب معنى ألا يطلب الرفع قبل التأهيل. لا تطلب أن يعرفك الناس قبل أن يعرف قلبك موضعه من الله. لا تطلب الظهور قبل أن يتسع صدرك للثناء والذم معًا. لا تطلب الذكر وأنت لم تتحرر بعد من حاجتك المرضية إلى اعتراف الخلق. فإن الذكر إن جاء قبل النضج قد يكشف الفقر الداخلي بدل أن يعالجه.

الرفعة نعمة حين تقود إلى الشكر.
وفتنة حين تقود إلى النفس.

ثم يدخل القانون المركزي: {فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا . إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا}

وهذا هو قلب السورة النابض. لا تقول الآية إن العسر وهم، ولا إن المؤمن لا يتألم، ولا إن الطريق سيخلو من الكلفة، بل تقول ما هو أصدق وأعمق: العسر موجود، ولكن معه يسر.

إنها لا تلغي الجرح.
تضع فيه ضوءًا.

وهذا الضوء قد يكون ظاهرًا، وقد يكون خفيًا. قد يكون في فرج قريب، وقد يكون في صبر يولد داخل القلب. قد يكون في باب يُفتح، وقد يكون في باب يُغلق رحمة. قد يكون في رزق يأتي، وقد يكون في شر يصرف. قد يكون في علم يورثه البلاء، أو توبة يفتحها الانكسار، أو دعاء لم يكن ليصدق لولا الضيق.

ومن لم يتعلم رؤية اليسر المصاحب، عاش ينتظر نهاية العسر ليبدأ الإيمان بالرحمة. أما سورة الشرح فتقول له: لا تؤجل كل شهودك لله إلى ما بعد الفرج. التمس اللطف في الطريق. ليس كل اليسر مؤجلاً. بعض اليسر معك الآن، لكنه يحتاج صدرًا مشروحًا ليراه.

هنا يتغير السؤال.

لا يعود السؤال: متى ينتهي العسر فقط؟

بل: ما اليسر الذي جعله الله معه؟

ما الذي حفظني؟

ما الذي بقي لي؟

ما الذي تعلمته؟

ما الوهم الذي انكسر؟

ما الباب الذي فتحه الله في قلبي؟

ما الذي كان سيهلكني لو حصلت عليه كما أريد؟

هذه الأسئلة لا تجعل العسر سهلاً، لكنها تجعله مقروءاً بنور. والإنسان لا يهزمه الألم وحده، بل يهزمه الألم حين يصير بلا معنى. فإذا دخل المعنى، بقي الوجد، لكنه لا يعود ظلاماً كاملاً.

ثم تأتي الآية التي تمنع الطمأنينة من أن تتحول إلى رقاد: {فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ}

هنا تظهر صرامة السورة. لقد واستك، وذكرتك، وثبتتك، ثم قالت لك: قم. لا تجعل الفراغ وطناً. لا تجعل انتهاء العمل انتهاء للمعنى. لا تجعل اليسر نومًا طويلاً بعد العسر. لا تكن عبد الحاجة؛ فإذا احتجت دعوت، وإذا كُفيت غفلت. بل كن عبد الله في العسر واليسر، في الضيق والسعة، في العمل والراحة.

والفراغ ليس شراً مطلقاً، لكنه خطر عظيم إن خلا من الوجهة. فالفراغ مساحة مفتوحة؛ إما أن يدخلها الذكر، أو تدخلها التفاهة. إما أن تصير انتقالاً إلى عمل أذكى، أو تصير مستنقاعاً للتبدد. ولهذا لم تقل الآية: فإذا فرغت فاستغرق في الراحة، بل قالت: {فَانْصَبْ}.

والنصب هنا ليس عبودية للتعب، ولا تمجيذاً للاستنزاف، ولا إلغاءً لحق الجسد والنفس، بل توجيه للحياة أن لا تخلو من معنى. الراحة نفسها ينبغي أن تكون خادمة للمعنى، لا هروباً منه. ينام العبد ليستيقظ أصلب. يستريح ليعود أنقى. يخلو ليصلح ما أفسده الضجيج. أما أن يتحول الفراغ إلى قطع للعلاقة بالله، فهذا موت ناعم.

ثم تأتي الخاتمة التي تلخص السورة كلها: {وَالِى رَبِّكَ فَارْغَبْ}

هذه الآية الأخيرة ليست جملة زائدة بعد الأمر بالنصب، بل هي روح النصب، وميزان اليسر، وحارس الرفع، ومقصد الشرح. فليس المطلوب أن تعمل فقط، بل أن تعمل وأنت متجه إلى الله. وليس المطلوب أن ترغب فقط، بل أن تُصحح جهة الرغبة. فقد تكون الرغبة قوية لكنها منحرفة. وقد يكون العمل كثيراً لكنه متجه إلى النفس. وقد يكون الرفع واسعاً لكنه صار فتنة. ولا ينقذ ذلك كله إلا أن تكون الرغبة إلى الله.

إِلَى رَبِّكَ، لَا إِلَى ذِكْرِكَ.

إِلَى رَبِّكَ، لَا إِلَى عَمَلِكَ.

إِلَى رَبِّكَ، لَا إِلَى الْيَسْرِ وَحْدَهُ.

إِلَى رَبِّكَ، لَا إِلَى اعْتِرَافِ النَّاسِ.

إِلَى رَبِّكَ، لَا إِلَى صَوْرَتِكَ فِي عَيُونِ الْآخَرِينَ.

وهذا هو التوحيد العملي للرجبة. أن تبقى حاجاتك البشرية موجودة، لكن لا تصير آلهة صغيرة في القلب. تطلب الفرج، لكن لا تعبد الفرج. تطلب اليسر، لكن لا تنس رب اليسر. تفرح بالقبول، لكن لا تسجد في باطنك للجمهور. تعمل، لكن لا تجعل العمل صنماً. تنجز، لكن لا تنته إلى الإنجاز.

الغاية هي الله.

وإذا انتهت السورة إلى الله، فقد أعادت الإنسان إلى موضعه الصحيح. فهو ليس مركز الكون، ولا صانع نجاته بنفسه، ولا مالك النتائج، ولا سيد الطريق. هو عبد. لكنه عبد مكرم بالوحي، مشروح الصدر إن شرح الله صدره، مخفف الظهر إن وضع الله وزره، مرفوع الذكر إن رفع الله ذكره، مأمور بالعمل، مدعو إلى الرجبة.

وهذه العبودية ليست نقصاً في الإنسان، بل كماله. لأن الإنسان إذا خرج من عبوديته لله وقع في عبوديات أصغر وأقسى: عبودية الخوف، أو الذكر، أو الناس، أو العمل، أو النتيجة، أو الماضي، أو العسر. أما إذا رغب إلى ربه، استعاد حريته من كل ما سواه.

إن سورة الشرح، في جوهرها، سورة تحرير.

تحررك من ضيق الصدر.

ومن سطوة الوزر.

ومن عبادة الذكر.

ومن طغيان العسر.

ومن خمول الفراغ.

ومن جفاف العمل.

ومن تشتت الرغبة.

ثم لا تتركك في فراغ بعد التحرير، بل تضعك في العبودية: {فَأَنْصَبْ}،
{فَارْغَبْ}.

وهنا يكتمل البناء.

ليست السورة وعدًا بلا عمل.

وليست عملاً بلا مدد.

وليست مددًا بلا وجهة.

وليست وجهة بلا تربية.

إنها نسق كامل:

منة، ثم تثبيت، ثم تكليف، ثم توجيه.

شرح، ثم وضع، ثم رفع، ثم يسر، ثم نصب، ثم رغبة.

ولو أراد الإنسان أن يلخص حياته كلها في ضوء هذه السورة، لقال:
يا رب، اشرح صدري لما حملتني.

وضع عني ما يقطعني عنك.

وارفع ذكرى بالحق إن كان في رفعه خير لديني.

واجعل لي مع كل عسر يسراً أراه أو لا أراه.

ولا تجعل فراغي موتاً لمعنائي.

واجعل نصبي لك لا لنفسي.

واجعل رغبتي إليك لا إلى ما سواك.

هذه ليست مجرد معاني للتأمل، بل برنامج حياة.

فحين يضيق الصدر، لا يهرب القلب إلى الشكوى العمياء، بل يطرق باب الشرح.

وحين يثقل الظهر، لا يظن العبد أن الحمل أبدي، بل يطلب الوضع من الله.

وحين يرفع الله ذكره، لا يجعل الرفع غذاء للكبر، بل أمانة للشكر.

وحين يأتي العسر، لا يراه منفرداً، بل يفتش عن اليسر المصاحب.

وحين يفرغ، لا يترك نفسه للعبث، بل ينصب فيما يرضي الله.

وحين يعمل، لا ينتهي إلى عمله، بل إلى ربه.

ومن عاش هكذا، لم يكن بلا ألم، لكنه لم يعد بلا نور.

وهذه هي السكينة القرآنية: ليست حذفاً للمشقة، بل حضور المعنى داخلها.

ليست وعداً بحياة بلا ثقل، بل وعداً بأن الثقل ليس الكلمة الأخيرة. ليست

راحة الجسد وحده، بل طمأنينة القلب حين يعرف أين يضع خوفه، وأين يضع
أمله، وأين يضع عمله.

سورة الشرح لا تقول للعبد: لن تنكسر أبداً.

بل تقول: إن انكسر شيء فيك، فهناك رب يجبر.

ولا تقول: لن تحمل.

بل تقول: هناك رب يضع.

ولا تقول: لن تعسر.

بل تقول: مع العسر يسر.

ولا تقول: إذا تعبت فتوقف إلى الأبد.

بل تقول: إذا فرغت فانصب.

ولا تقول: اجعل عملي نهايتك.

بل تقول: إلى ربك فارغب.

بهذا تصبح السورة رفيقة العمر. تقرأها في الصباح حين تخاف من يوم ثقيل.

وتقرأها بعد إنجاز حتى لا تغتر. وتقرأها عند الفقد حتى لا تنسى اليسر.

وتقرأها في الفراغ حتى لا تتبدد. وتقرأها إذا كتب الله لك قبولاً حتى لا تسكر

بالقبول. وتقرأها إذا لم يلتفت الناس إليك حتى تعلم أن الرفع الحق من الله.

إنها سورة للصدر حين يضيق.

وللظهر حين ينقض.

وللذكر حين يخفى أو يرفع.

وللعسر حين يطغى على النظر.

ولليس حين يحتاج إلى شكر.

وللفراغ حين يفتح أبوابه.

وللعمل حين يخاف عليه من الرياء.

وللقلب حين تتبعثر رغباته.

وهذه السورة، على قصرها، تعلمنا أن القرآن لا يعالج الإنسان من سطحه. إنه يدخل إلى مركزه. لا يكتفي بأن يقول له: اصبر. بل يريه لماذا يستطيع أن يصبر. لا يكتفي بأن يقول: اعمل. بل يضع في قلبه اليسر الذي يعينه على العمل. لا يكتفي بأن يواسيه. بل يعيد بناءه.

ومن هنا كان تأمل سورة الشرح تأملًا في طريقة الوحي في صناعة الإنسان. الإنسان لا يُصنع باللين وحده، ولا بالشدة وحدها. يحتاج إلى منة توقظه، ووعد يثبته، وأمر يحركه، ووجهة تحفظه. وهذا كله اجتمع في ثمانية آيات.

ما أعظم هذا الاقتصاد القرآني.

وما أعمق هذا الامتلاء.

ثماني آيات، لكنها تتسع لعمر كامل من التربية.

وفي آخر السطر، يبقى المعنى الأكبر: أن الله إذا أراد بعبده خيرًا، لم يجعل أول عطيته تغيير الظروف دائمًا، بل شرح الصدر. لأن الصدر إذا اتسع لله، حمل ما كان يظنه فوق طاقته. وإذا ضاق عن الله، ضاق بما هو أقل من طاقته.

فليست البطولة أن لا يأتي العسر.

البطولة أن لا يطفى العسر نور الرغبة إلى الله.

وليست النجاة أن لا تتعب.

النجاة أن لا يصير تعبك بلا قبلة.

وليست الكرامة أن يعرفك الناس.

الكرامة أن يرفع الله ذكرك بما يرضيه، أو يسترك بما يحفظك، ثم لا يضيع عنده شيء من صدقك.

وليست الراحة أن تفرغ.

الراحة أن تعرف ماذا تفعل بفراغك.

وليست الغاية أن ترى اليسر.

الغاية أن ترى ربك من خلال اليسر والعسر معًا، رؤية إيمان وتنزيه وافتقار، لا رؤية إحاطة، فالله أجل وأعظم، ليس كمثله شيء، وهو السميع البصير.

وهكذا تغلق السورة أبواب الضياع، واحدًا بعد آخر.

إذا ضعت في ضيقك، ذكّرتك بالشرح.

إذا ضعت في ثقلك، ذكّرتك بالوضع.

إذا ضعت في خفائك، ذكّرتك بالرفع.

إذا ضعت في عسرك، ذكّرتك باليسر.

إذا ضعت في فراغك، أمرتك بالنصب.

إذا ضعت في عملك، ردتك إلى الرغبة.

فمن قرأها حقًا لم يعد يسأل الحياة أن تكون سهلة دائمًا، بل سأل الله صدرًا مشروحًا، وبصيرة ترى اليسر، وقلبًا لا يعبد إلا الله، وعملاً لا يتجه إلا إليه.

وهذا هو ختام الكتيب كما هو ختام السورة:

لا تجعل صدرك أضيق من رسالتك.

ولا تجعل عُسرِكَ أوسع من وعد ربك.

ولا تجعل فراغك أقوى من همتك.

ولا تجعل عملك يحجبك عن معبودك.

ولا تجعل رغبتك تتبعثر بعد أن عرفت الباب.

وَإِلَى رَبِّكَ فَارْغَبْ.

والحمد رب العالمين

فهرس الكتاب

الصفحة	المحتوى
4	الفكرة المركزية للكتيب
5	المقدمة: السورة التي لا تواسي فقط، بل تعيد بناء الداخل
8	الفصل الأول: بين الضحى والشرح: من كشف العناية إلى توسيع الصدر
12	الفصل الثاني: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾: حين يبدأ الفتح من الداخل
19	الفصل الثالث: شرح الصدر: ليس راحة رخوة، بل سعة مسؤولية
30	الفصل الرابع: ﴿وَوَضَعْنَا عَنْكَ وِزْرَكَ﴾: ثقل ما قبل الانطلاق
41	الفصل الخامس: ﴿الَّذِي أَنْقَضَ ظَهْرَكَ﴾: حين يصبح الحمل مسموعاً في العظام
56	الفصل السادس: ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾: الرفعة التي لا يصنعها التصفيق
70	الفصل السابع: سر الاقتران بين شرح الصدر ورفع الذكر
85	الفصل الثامن: ﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا﴾: القانون الأول للنجاة
100	الفصل التاسع: ﴿إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا﴾: لماذا تكرر الوعد؟
115	الفصل العاشر: اليسر المصاحب لا المؤجل: قراءة في كلمة (مع)
128	الفصل الحادي عشر: العسر الواحد واليسران: معنى الرجاء المنضبط
140	الفصل الثاني عشر: ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ﴾: لا فراغ في حياة صاحب الرسالة
156	الفصل الثالث عشر: التعب بعد التعب: كيف يصير النصب عبادة؟
171	الفصل الرابع عشر: ﴿وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَارْغَبْ﴾: آخر الطريق ليس الإنجاز بل الله

الصفحة	المحتوى
186	الفصل الخامس عشر: خاتمة السورة: القلب المشروح لا يهرب من العسر بل يحمله بنور
197	الفصل السادس عشر: خاتمة الكتيب: من ضيق الصدر إلى سعة الرسالة